دراســـات
فـــى
تـــاريخ العصور الوســطى

الأستـاذة الدكتــورة
إســمت غنــيم

أستاذة تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم العلوم الاجتماعية
جامعة الاسكندرية

١٩٩٤

جامعة الإسكندرية
كلية التربية

الآفـــــار

دكتـــــورة
إسمـــت غنيـــم
جامعة الاسكندرية

١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعرضت الإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي لهجمات عناصر مختلفة ، سواء كانت هذه العناصر من البرابرة الجرمان ، أو من القبائل الآسيوية الرعوية ، وإذا كانت شبه جزيرة سكيندناوة فـ ال أوروبا ، تبدو قريبة من حدود الإمبراطورية الرومانية في الغرب الاوروبي ، ، كانت المناطق التي عاشت فيها الشعوب الآسيوية بعيدة إلي حد ما عن أوروبا ، حيث عاشت هذه الشعوب في سهول آسيا في ظروف معيشية صعبة وتحت رحمة الطبيعة وتقلباتها ، لذلك أخذوا في التنقل والترحال من مكان إلي آخر ، بحثا عن الغذاء لهم ولما معهم من خيل وماشية ، واضطروا أحيانا للقيام بغارات مدمرة هدفها السلب والنهب ، وتعرضت أوروبا لهذه الغارات بين الحين والحين ، وغدت السهول الواقعة شمالي بحر قزوين منفذا أمام هذه القبائل نفذت منه إلي أوروبا ، فأثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب الموجودة علي حدود الامبراطورية الرومانية ثم داخل هذه الامبراطورية ذاتها فيما بعد .

وكان من بين هذه الشعوب الآسيوية ، السكيثيين Scythians ، والسارماشيين Sarmatians ، والهون Huns ، والآفار Avars ، والبلغار Bulgars ، والمجريين Magyars ، والمغول Mongols ، وغيرهم كثيرين .

ولا يخفي علي أحد من الباحثين في تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، الدور الذي قام به الهون منذ ظهورهم في حوض نهر الدانوب الأدني في عام ٣٧٥م ، وحتي وفاة زعيمهم آتيللا في ٤٥٣م . ، وانهيار امبراطورية الهون بعد

هزيمتهم في معركة نديو Nedeo في عام ٤٥٤ م. [١] .

وقد لعب الآفار دورا قريب الشبه بالدور الذي لعبه الهون في أوروبا ، فاستولوا مثلهم علي موقع ممتاز في وسط أوروبا علي الحافة الغربية لنطاق السهل الآسيوي العظيم ، وظلوا أكثر من قرنين من الزمان يثيرون الرعب في قلوب شعوب المنطقة الممتدة بين بحر البلطيق وشبه جزيرة المورة (البلوبونيز) و أخضعوا شعوبا كثيرة لسيطرتهم ، وكان حكمهم يتناسب مع أسلوب حياتهم ، وأصولهم في بلاد السهوب ، اذ ينطوي علي الاستبداد ، ويعتمد علي القوة ، ويقوم علي غارات السلب والنهب وبث الرعب والإرهاب .... ثم يتعرض للإنهيار الفجائي .

وكان تأثير الآفار في أوروبا العصور الوسطي تأثيرا كبيرا ، وكانت لهم علاقات مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وهددوا القسطنطينية أكثر من مرة ، كما هددوا غرب أوروبا ، وهاجموا إيطاليا ، وسببوا متاعب لمملكة الفرنجه ، حتي تم لشارلمان (٧٦٨ – ٨١٤م) القضاء عليهم ، وبذلك زالت عقبة أمام امتداد النفوذ الفرنجي شرقا ، كما مكن الفيكنج من الوصول إلي نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود ، وتأسيس مدينة كييف ، التي كانت اللبنة الأولي في صرح الإمبراطورية الروسية .

وقد إعتمدنا في هذا البحث علي العديد من المصادر المعاصرة ، وهي مصادر أصلية قيمة ، أمدتنا بالمعلومات التاريخية الهامة عن غزوات الآفار وأتباعهم من

(١) سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطي ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٧٢ ، ٩١ .

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطي الاوروبية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ص ٨٠ – ٨٢ .

السلاف وغيرهم من العناصر الأخري ، خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي . كما أن هناك مصادر أخري عرضت للحادث الخطير الخاص بحصار الآفار وأتباعهم لمدينة القسطنطينية في عام ٦٢٦م. أثناء عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) وتفاصيل هذا الصراع والنتائج التي ترتبت علي فشله . وأمدتنا مصادر ثالثة بتفاصيل الصراع بين شارلمان والآفار ، وهو الصراع الذي إنتهي بقضاء شارلمان عليهم في ٨٠٩م.

ومن أهم المصادر التي عرضت للآفار وبداية ظهورهم علي مسرح الحوادث التاريخية وغاراتهم علي أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، المصادر التالية حسب ترتيبها الزمني :

يوحنا الأفسوسي Jhon of Ephesus [1] :

هو كاتب سوري الأصل ، عاش في أواسط القرن السادس الميلادي وقضي سنوات حياته في آسيا الصغري والقسطنطينية وتوفي في عام ٥٨٦ م. وأثناء حياته شغل منصب بطريرك كنيسة إفسوس وكان معروفا بصفة شخصية للإمبراطور جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥م) وزوجته الإمبراطورة ثيودورا .

وكان يوحنا يؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح Monophysite ، وكتب عن التاريخ الديني Ecclesiastical History كتابا بدأه بعصر يوليوس

(١) للمزيد عن يوحنا الافسوسي راجع :

C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , Cambridge , 1975 , P. 480 , 603 , N. I.

Vasiliev : History of the Byzantine Empire , vol I , PP. 150 - 151 , 184 - 185 .

قيصر (٤٩ ق.م - ٤٤ ق.م) كما عرض لوجهة نظر أصحاب الطبيعة الواحدة .

وما يهمنا في هذا المصدر ، هو الحوادث التاريخية التي عرض لها منذ عام ٥٢١ وحتي عام ٥٨٥ م. والتي اشتملت علي معلومات قيمة في التاريخ السياسي والثقافي للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي .

وقد كتب يوحنا مؤلفه هذا باللغة السريانية ، وترجمة إلي اللغة الانجليزية باين- سميث Payne - Smith ونشره في أكسفورد في عام ١٨٦٠م ، وهي الترجمة التي رجعنا إليها في هذا البحث . وهناك ترجمة لاتينية لهذا المؤلف قام بها بروكس Brooks ، ولوفين Louvain ، وظهرت عام ١٩٣٦ .

أفاجريوس Evagrius :

يعرف باسم أفاجريوس السوري Evagrius of Syria ، ولد في عام ٥٣٦، وتوفي في عام ٦٠٠ م. ، كتب في التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica مؤلفا اشتمل علي ستة فصول ، بدأه بمجمع إفسوس الديني في ٤٣١ م. وانتهي به عام ٥٩٣م. وإلي جانب الحوادث الدينية التي تضمنها ، اشتمل كتابه أيضا علي حوادث تاريخية هامة للفترة الزمنية المشار اليها ، وقد نشره باللاتينية بيدز Bidez وبارمنتير Parmentier في لندن عام ١٨٩٨م. وهي الطبعة التي رجعنا اليها في هذا البحث .

ميناندر Menander :

هو مؤرخ ، عاش في القرن السادس الميلادي وكان موظفا في القصر

الإمبراطوري ، كلفه الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢م.) بكتابة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، فكتب تاريخا غطي فيه معظم القرن السادس الميلادي ، وتناول فيه بصورة أكثر تركيزاً الفترة الزمنية الممتدة من سنة ٥٥٨ إلي سنة ٥٨٢م.، وهي فترة هامة بالنسبة لهذا البحث ، شهدت بداية اتصال الآفار بالإمبراطورية البيزنطية في ٥٥٨م. في عصر الإمبراطور جستنيان ، ثم عرض لغارات الآفار وأتباعهم من السلاف والعناصر الأخري علي ممتلكات الإمبراطورية في اقليم البلقان وبلاد اليونان حتي عام ٥٨٢م ، ويعتبر تاريخ ميناندر تكملة لتاريخ أجاثياس مؤرخ عصر جستنيان ، كما قام ثيوفيلاكتوس سيموكاتا بتكملة تاريخ ميناندر .

ولم يبق ممن تاريخ يناندر سوي بعض أجزاء Fragments نشرت في عام ١٨٢٩م. في مجموعة بون البيزنطية C. S. H. B. باسم (مقتطفات من التاريخ) Excerta ex Historia ، كما قام ديندورف Dindorf بنشر هذه الأجزاء تحت إسم (تكملة تاريخ أجاثياس) Agathias Continuatus في مدينة ليبزج في عام ١٨٧١ في مجموعة : Historici Graeci Minores وهذه الطبعة هي التي رجعنا اليها في هذا البحث .

ثيوفيلاكتوس سيموكاتا heophylactus Simocatta :

ولد بمصر ، وعاش بالقسطنطينية خلال عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ، وشغل منصب السكرتير الإمبراطوري ، وإلي جانب ما كتب عن العلوم الطبيعية وبعض الرسائل [(١)] ، فانه كتب أيضا تاريخ عصر الإمبراطور موريس

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State , trasl. by Hussey , Oxford , 1968 , P. 25 .

Vasiliev : Op. cit , P. 181 - 182 .

(٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، الذي يعتبر مصدرا هاما عن عصر هذا الامبراطور ، وقد أمدنا بمعلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة عن الآفار والسلاف في منطقة البلقان عند نهاية القرن السادس الميلادي ، ونشره العالم دي بور De Boor باللغة اللاتينية تحت اسم التاريخ Historiae في ليبزج Leipzig في عام ١٨٨٧م.

يوحنا بيكلارنسيس Johannis Biclarensis :

عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، وهو ينتمي إلي القوط الغربيين Visigothes ، ولد بإسبانيا ثم انتقل للإقامة بالقسطنطينية وعاش بها لمدة سبعة عشر عاما ثم عاد لأسبانيا مرة أخري ، وأثناء وجوده بالقسطنطينية درس اللغتين اليونانية واللاتينية (١) . وقد أعطي وصفا للحوادث التاريخية منذ عصر جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م) وحتي عصر طيبريوس الثاني (٥٧٨ - ٥٨٢م) فيما أسماه (تاريخا أو عرضا للحوادث) Chronica ، ونشره باللاتينية مومسن Mommsen في برلين ، في عام ١٨٩٤م .

كانت هذه هي أهم المصادر التي رجعنا إليها عند معالجة تاريخ الآفار خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، أما الحادث الهام ، الخاص بحصارهم البري والبحري للعاصمة البيزنطية القسطنطينية في عام ٦٢٦م ، فقد سجلته مجموعة من المصادر المعاصرة ، منها ما دونه رجل الدين المعاصر جورج بيسيديا Pisidia ، الذي كان يعمل شماسا في كنيسة أيا صوفيا ، وقد دون كل ما يتعلق بهذا الحصار في قصيدة شعرية تاريخية تضم أكثر من خمسمائة بيت من الشعر . وقد قسمت هذه القصيدة إلي ثلاثة أقسام :

(1) Toynbeé A. : Constantine porphyrogenetus and his world , London , 1973 , P. 633 , N . I .

القسم الأول :

عن الحملة التي قام بها هرقل ضد الفرس في عام ٦٢٢م ، وأطلق علي هذا القسم اسم (عن الحملة الفارسية) De expeditione persica .

والقسم الثاني :

عن (حرب الآفار) Bellum Avaricum وقد دوّن في هذا القسم من أشعاره ، كل ما يتعلق بالحصار البري والبحري الذي فرضه الآفار وأتباعهم من القبائل الأخري علي القسطنطينية في عام ٦٢٦م .

أما القسم الثالث :

فكان عن المرحلة الأخيرة من حرب هرقل ضد الفرس ، وأطلق عليه اسم Heraclias .

وقد نشر بيكر Bekker اشعار بيسيديا في مجموعة بون البيزنطية C.S. H. B. خلال عامي ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ ، وهذه هي الطبعة التي رجعنا إليها .

وهناك طبعة جديدة مع ترجمة وشرح للأشعار باللغة الإيطالية نشرها العالم الايطالي برتوسي Pertusi وظهرت في عام ١٩٦٠ تحت عنوان (شعر جورج بيسيديا) ، Giorgio di pisidia poemi , panegirici epici , Ettal 1960 .

وقد دوّن أيضا هذه الحوادث الخاصة بحصار الآفار للقسطنطينية في عام ٦٢٦م، رجل الدين المعاصر ثيودور سنكيلوس Theodore Syncellus الذي كان زميلا لجورج بيسيديا في كنيسة آيا صوفيا ودوّن هذه الحوادث في خطبة ألقاها

أمام البطريرك سير جيوس في ذكري الإحتفال بانتصار البيزنطيين علي الآفار وحلفائهم وتم هذا الاحتفال بانتصار البيزنطيين علسي الآفار وحلفائهم ، وتم هذا الاحتفال في يوم ٧ أغسطس ٦٢٧م ، وكان عنوان خطبته هو " الهجوم الأحمق للآفار ، والفرس الزنادقة ، ضد المدينة التي يحميها الرب ، وتقهقرهم المخزي بفضل الحب الإلهي للشعب ، وبفضل شفاعة العذراء المباركة " . وقد نشرها العالم سترنباخ في عام ١٩٠٠ م .

ومن المصادر الهامة التي عرضت لهذا الحادث التاريخي ما كتبه البطريرك نقفور Nicephori patriarchae الذي ولد في عام ٧٥٨ م. وتوفي في عام ٨٢٩م . وهو ينحدر من عائلة نبيلة من عائلات القسطنطينية ، وشغل منصبا هاما في القصر الإمبراطوري وفي عام ٧٨٧م حضر مجمع نيقية الديني نائبا عن الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠ - ٧٩٧م) وبعد انتهاء المجمع اعتزل نقفور الحياة العامة ، ولجأ إلي دير أسسه بنفسه ، وفي ٨٠٦ تم تعيينه بطريرك لكنيسة القسطنطينية (آيا صوفيا) ، وظل بهذا المنصب حتي عام ٨١٥ م. حين عزله الامبراطور ليو الخامس (٨١٣ - ٨٢٠م) بعد أن رفض نقفور تأييد سياسة الامبراطور الخاصة بمناهضة عبادة الصور المقدسة(١) .

وقد كتب عددا من الأعمال الدينية تتعلق بالجدل الذي أثير حول عبادة الصور المقدسة ، وكانت كتاباته هذه تتصف بالعنف ، وكتب أيضا عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في الفترة من عام ٦٠٢م. وحتي عام ٧٧٠ م. .

(١) للمزيد عن البطريرك نقفور وأعماله ، راجع :

Alexander P. : The patriarch Nccephorus of Constantinople 1958 .

ويعرف كتابه بإسم (المختصر) Breviarium ، وقد توخي فيه الدقة والموضوعية ، ونشره العالم دي بور De Boor في ليبزج عام ١٨٨٠ م.

الراهب ثيوفانيس [1] Theophanes :

هو مؤرخ وعالم لاهوت متعمق ، ولد في عام ٨١٨ م. وكتب حوليات Chronographia عرض فيها للفترة الممتدة من عام ٢٨٤ إلي عام ٨١٣ م. ، واعتمد فيها علي المصادر القديمة السابقة لعصره ، وخاصة ما كتب منها في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، فغدت حولياته ذات قيمة كبيرة ، وتمتعت بمكانة سامية في بيزنطه ، وأصبحت بمثابة المصدر الأصلي لكل الحوليات البيزنطية المتأخرة زمنيا وقام انستاسيوس Anastasius ، أمين المكتبة البابوية خلال السبعينات من القرن التاسع الميلادي بترجمتها من الأصل اليوناني إلي اللغة اللاتينية ، وعن هذا الطريق أصبحت حولياته معروفة في الغرب الاوروبي ، وتمتعت بشهرة واسعة هناك ، ثم قام العالم دي بور De Boor بنشرها في جزئين فيما بين سنتي ١٨٨٣ - ١٨٨٥ م. ، في مدينة ليبزج ، وهي الطبعة التي رجعنا إليها في هذا البحث . علي أنه هناك طبعة باللغة الألمانية قام بها ريير Reyer ، وهي قاصرة علي الحوليات الواقعة بين سنوات ٧١٧ - ٨١٣ م. ، ووضع لها مقدمة ونشرها في عام ١٩٥٧ م.

أما عن علاقات الآفار باللومبارديين ، فقد تناولها المؤرخ المعاصر بولس

(1) C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , PP.75 , 80 , 90 , 447 , 592 , 603 , N. I.

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 25 , 87 , ff. , 125 , 131 , 147 , ff.

Vasiliev : Op. cit , P. 365 .

الشماس (1) Paul the Deacon الذي ينتمي إلي اللومبارديين ، وعاش في الفترة من ٧٢٠ – ٨٠٠ م. وقد تلقي تعليمه في البلاط الملكي في بافايا Pavia ، ثم أصبح راهبا بندكتيا في حوالي ٧٧٥ م. وعاش في دير مونت كاسينو Monte Cassino – إلي الجنوب الشرقي من روما – وفي عام ٧٨٢ ، قام بزيارة الملك الفرنجه شارلمان ، الذي أحسن إستقباله وظل مقيما ببلاطه حتي عام ٧٨٦ م. وأثناء وجوده هناك قام بكتابة تاريخ أساقفة متز Metz ، وبعد عودته إلي دير مونت كاسينو في إيطاليا ، شرع في كتابة أكثر أعماله أهمية وهو تاريخ اللومبارديين ، Historia Lomgobardorum الذي كتبه باللاتينية وعرض فيه للفترة الزمنية الممتدة من ٦٦٨ – ٧٧٤ م.

وقد رجعنا إلي الترجمة الانجليزية التي قام بها وليم دادلي فولك William Dudley Foulke ونشرها مع مقدمة لها ، ادوارد بترز Edward peters ، وظهرت ضمن منشورات جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٧٤ تحت عنوان : History of the Lombards .

ومن المصادر المعاصرة الهامة التي رجعنا اليها أيضا لاستقاء المادة التاريخية عن الفترة الأخيرة من تاريخ الآفار وكيفية قضاء شارلمان عليهم كتاب

(1) Paul The Deacon : History of the Lombards , travse . by Foulke , ed. Peters , PP. VII - VIII .

The illustrated Encyclopedia of Medievae Civilization , ed. , Grabois , 1930, P. 576 .

جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ العصور الوسطي الأوروبية وحضارتها ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ص ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١٩ .

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقاتهم بالقوي السياسية المجاورة في ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ص ٣ – ٥ .

اينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان .

ولد إينهارد في عام ٧٧٠ م. في مدينة فرانكونيا Franconia ، في وسط ألمانيا ، وتلقي تعليمه في المدرسة الملحقة بدير فولدا Fulda ، وهو دير بندكتي يقع في شمال فرانكونيا ، وأسسه القديس بونيفس Boniface في عام ٧٤٤ م. ثم التحق إينهارد بمدرسة القصر ، التي أسسها شارلمان في مدينة آخن Aachen ، وأصبح صديقا ومستشارا لشارلمان وبقي كذلك حتي وفاة شارلمان في ٨١٤ م. فتمتع إينهارد بمكانة كبيرة لدي إبن شارلمان وخليفته في الحكم لويس التقي (٧٧٨ - ٨٤٠ م) الذي أنعم عليه بضياع واسعة في ألمانيا .

وقد كتب إينهارد سيرة ذاتية لشارلمان تناول فيها أعماله ومآثره ، كما ضمنها كثيرا من التفاصيل التي انفرد بها ، وذلك نظرا لقربه من شارلمان ، وأطلق علي هذه السيرة اسم (حياة شارل) Vita Caroli والغالب أنه كتبها في الفترة ما بين سنوات ٨٢٩ ، ٨٣٦ م. وتعتبر هذه السيرة الذاتية لشارلمان علامة بارزة في هذا النوع من الكتابات في العصور الوسطي .

إلي جانب ذلك ، هناك ثلاثة أعمال أخري لإينهارد :

العمل الأول هو : (رسائل إينهارد) Einhard Epistolae وهي عبارة عن أبحاث في إدارة أعماله في ألمانيا ، وتعتبر شاهدا هاما علي النظام الإقطاعي في المجتمع الألماني في القرن التاسع الميلادي .

والعمل الثاني هو : (ترجمة حياة ومعجزات القديسين مارسيلينوس وبطرس)
Detranslatione et miraculis Sanctorum Suorum Marcellini et Petri .

أما العمل الثالث فهو : (مذكرات في تمجيد الصليب) Libellus de adoranda Cruce . وقد كتب إينهارد أعماله كلها باللغة اللاتينية . وفي عام ٨٣٠م. غادر إينهارد البلاط الملكي ورحل إلي ضياعه في ألمانيا واستقر بها حتي وفاته في عام ٨٤٠ م. (١) .

كانت هذه نبذة سريعة عن أهم المصادر التي رجعنا اليها في هذا البحث . إلي جانب عدد كبير من المراجع جرت الإشارة اليها علي امتداد البحث . ونستعرض في الصفحات التالية الدور الذي لعبه الافار في تاريخ أوروبا ، منذ بداية ظهورهم علي مسرح الحوادث التاريخية ، وحتي القضاء عليهم علي يد شارلمان .

(١) عن إينهارد وأعماله راجع :

- Einhard and Notker the Stammerer , Two Lives of Charlemagne , Trans , by Thorpe , Great Britain , 1969 , PP. 12 - 15 .
- Halphen L. ed. , Einhard , La Vie de Charlemagne , Paris .
- The Illus . Encycl . of Medieval civilization , P. 289 .

فيما يتعلق بأصل الآفار ، فانه ليس هناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول هذا الموضوع ، حيث أرجعتهم الغالبية من المصادر والمراجع إلي عنصر الترك .

فقد ذكر كل من المؤرخين المعاصرين ميناندر ، وثيوفيلاكتوس سيموكاتا ، أن الترك الذين كانوا يعيشون علي ضفاف نهر تيل [١] أو تولا Til or Tula والذي كان الترك يطلقون عليه اسم (النهر الأسود) نظرا للون مياهه الداكن ، قد هاجموا الهون البيض المعروفين باسم هفثاليتس Hephthalites ، والأويغور Uigurs ، الذين ينحدرون من سلالتين هما الڤار والهون Var et Hunni ، ويطلق عليهم اسم ڤاركونيتس Varchonites ، وقد نبح خان الأويغور هو وثلاثمائة ألف من اتباعه ، وتناثرت جثثهم لمسافة امتدت سفر أربعة أيام ، وقد فضل عدد ممن نجوا من هذه المذبحة ويقدر عددهم بمائتي ألف محارب النفي علي العبودية ، ففروا وأتبعوا طريق نهر فولجا ، وظهروا في الغرب ، في شمال بلاد القوقاز ، وأطلقوا علي أنفسهم إسم الآفار Avars ، وهو إسم شعب قديم أفضل منهم [٢] .

ومعني ذلك أن الآفار يرجع أصلهم إلي الترك الأويغور الذين ينحدرون من سلالة الهون .

ويؤكد كل من المؤرخين الغربيين المعاصرين بولس الشماس ، وإينهارد ، أن

---

(١) نهر تيل نهر صغير يصب في نهر سلنجا Selinga في شمال منغوليا راجع :
Gibbon : The Declind and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4, P. 291, N. 2.

(2) Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici Graeci Minores , ed. by L. Dindorf , Vol II . Leipzig , 1871 , frag 4.

- Theophylactus Simocatta : Historiae , ed . , by C. De Boor , Leipzig , 1887, VII , P. 8.

الافار من عنصر الهون (١) .

وقد أخذ عدد كبير من المؤرخين المحدثين بهذا الرأي منهم علي سبيل المثال ، جيبون ، دنلوب ، بيوري ، باركر ، بيسكر ، بربيه ، وموصي (٢) .

وإذا رجعنا إلي كتاب (الإدارة الامبراطورية) De Administrando Imperio للإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩ م) الذي عرض فيه لمختلف الشعوب والقبائل التي عرفت في عصره والعصور السابقة له ، نجد أنه لا يدلي برأي قاطع عن أصل الآفار ولا عن وطنهم الأصلي ، فهو يقول : " والجيبيد اي الذين انقسموا فيما بعد إلي اللومبارديين والآفار (٣) " . ثم يقول : " وعندما جاء أتيلا ملك الآفار (٤) " . والمعروف أن أتيلا هو ملك الهون ، فهل في ذلك إشارة من قسطنطين السابع إلي أن الآفار من عنصر الهون؟

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards , PP. 50 , 67 .
Einhard and Notker the Stammerer , Two lives of Charlemagne , P. 67 .

(2) Gibbon E. : The Decline and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4 , P. 291 .
- Dunlop : The History of the Jewish Khazars , U. S. A. , 1967 , PP. 5 - 6 .
- Bury : History of the Later Roman Empire , U. S. A. , 1985 , Vol II , P. 314.
- Barker : Justinian and the later Roman Empire , P. 197 .
- Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II , ed. Bury , Cambridge , 1976 , P. 438 .
- Brehier L. : Vie et mort de Byzance Paris , 1969 , P. 40 .

(3) Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Jmperio , ed - Bonn , C. S. H. B. , Chapter 25 .

(4) Ibid : Chapter 28 .

لا نستطيع ان نجزم بذلك ، خاصة وأنه عاد يقول : " .... ووجدوا أمة سلافية غير مسلحة كانت تسمي الآفار " وفي موضع آخر يقول : " واعتقد سكان الجانب الآخر من النهر وهم السلاف أو الآفار (١) " .

وهكذا لم يدلي الإمبراطور قسطنطين السابع برأي قاطع في أصل الآفار .

والمؤرخ أرنولد توينبي رأي في أصل الآفار عرضه في كتابه " قسطنطين السابع وعالمه " ذكر انهم شعب بدوي أوراسي (أوروبي – آسيوي) . Eurasian nomad People . (2)

ولم نعثر في المصادر أو المراجع التي رجعنا اليها علي مايؤيد هذا الرأي . وفي الوقت نفسه أرجع بعض المؤرخين ، الآفار إلي العنصر التركي المغولي ، منهم أوبولنسكي Obolensky ، هويتمان Hauptmann ، والعريني (٣) .

أما المؤرخان فازيلييف Vasiliev ، وبنتر Painter ، فقد أرجعا الآفار إلي الأصل التركي (٤) دون تحديد People of Turkish Origin .

(1) Ibid : Chapter 29 .

(2) Toynbeé A. : Constative Porphyrogenitus and his World , London , 1973 , P. 621 .

(3) Obolensky : The Empire an dits Northern Neighbours 565 - 1018 , in C. Med . H. Vol IV , part I , ed. Hussey P. 476 .

Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avars Pevdant la Second moitie du VI Siécle . dans (Byzantion) tome IV , 1927 - 1928, P. 148 .

العريني : المغول ، ص ١٠ .

(4) Vasiliev : Op. cit . , P. 171 .

Painter : A History of the Middle Ages 284 - 1500 , London , 1979 , PP. 35, 78 .

وينسبهم المؤرخون هوسيج Haussig ، هويت Hoyt ، شودورو Shodorow ، وسيليجر Seeliger ، إلي جبال ألطاي (١) في منغوليا ويقولون انهم شعب بدوي ألطائي (٢) nomadic Altaic People .

وهكذا نجد أن الغالبية من المؤرخين يكادوا يجمعون علي أن الآفار من عنصر الترك . والأرجح أنهم ينتمون إلي العنصر التركي الهوني ، وذلك استنادا إلي ما ذكره المؤرخون المعاصرون ، ميناندر ، ثيوفيلاكتوس ، بولس الشماس ، وإينهارد . خاصة وأن عددا من كبار المؤرخين المحدثين قد أخذوا بهذا الرأي ، كما سبقت الإشارة . ويجمع المؤرخون الذين سبق ذكرهم علي أن الموطن الأصلي للآفار هو وسط آسيا ، وأنهم فروا منها تحت ضغط الترك .

وقد استقروا منذ أواسط القرن السادس الميلادي عند سفوح جبال القوقاز ، حيث وجد أيضا عنصر اللان Alani ، وهناك سمعوا للمرة الأولي عن عظمة وثراء

(١) جبال ألطاي أو جبال الذهب ، هي مجموعة من السلاسل الجبلية المرتفعة التي تمتد من الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي علي امتداد الحافة الغربية للهضبة المرتفعة الواقعة إلي الشمال الغربي من منغوليا ، ويبلغ طولها حوالي السبعمائة ميل ، ويصل ارتفاعها إلي اثني عشر ألف قدم ، ويقع بين هذه الجبال سهول شاسعة يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف إلي ستة آلاف قدم ، راجع :

العريني : المغول ، ص ص ٥ - ٦ .

(2) Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from the German by Hussey , London , 1971 , P. 93 .

Hoyt & Shodorow : Europe in the Middle Ages Third Edition , U. S. A. , 1976 , PP. 4 , 120 .

Seeliger G. : Conquests and Imperial Coronation of Charles The Great , in C. Med . H. Vol II , ed. Bury , P. 608 .

الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التي كان يحكمها في ذك الوقت الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥ م) ، وعن طريق وساطة أمير اللان ، ويدعي ساروسيوس Sarosius سعوا إلي بيزنطة فجري أول إتصال بين الآفار وبين الإمبراطورية في عام ٥٥٨م ، حيث أرسلوا إليها سفارة علي رأسها أحدهم ويدعي كانديش Candish ، وفي طريقهم إلي القسطنطينية مروا بإقليم لازيقا Lazica علي ساحل البحر الأسود ، حيث سمح حاكمها البيزنطي بمواصلة طريقهم إلي العاصمة البيزنطية ، وهناك تجمع أهالي القسطنطينية يحفزهم الفضول وتملأهم الرهبة لشاهدة هؤلاء الرسل ذووا الملامح الهونية .

ولما سُمح لهم بلقاء الامبراطور جستينان ، أخذوا يقصون عليه أنباء انتصاراتهم ، وجيوشهم التي لا تقهر ، وطلبوا مطالب كثيرة ، منها أراضي ، وهبات، وهدايا ، وجزية سنوية ، وأورد المؤرخ ميناندر نص حديثهم للامبراطور ، قالوا : "أيها الملك العظيم ، أنت تري أمامك ، ممثلين لأقوي وأكبر الأمم ، التي لا تقهر ، جئنا لنعرض عليك أن نكرس جهودنا لخدمتك ، فبوسعنا القضاء علي جميع الأعداء الذين يقلقون راحتك . ولكننا نتوقع أن يكون ثمن تحالفنا ، وجزاء شجاعتنا ، هدايا ثمينة، وإعانة مالية سنوية ، وأراضي خصبة " (١) .

وتمشيا مع السياسة السلمية التي سار عليها جستنيان في السنوات الأخيرة من حكمه ، بعد أن خوت خزائن الإمبراطورية من الأموال نتيجة استنزافها في حروبه من أجل إستعادة ولايات الامبراطورية الرومانية المفقودة في الغرب الاوروبي ،

(1) Menander : Fragment 4 .
Gibbon : The Decline and Fall , Vol 4 , P. 222 .
Bury : History of the later Roman Empire , Vol 2 , P. 315 .
Hauptmann : Les Rapports , P. 148 .

وفيما كان يدفعه من أموال للفرس لشراء السلام علي الجبهة الشرقية ، إلي جانب الإنشاءات العديدة والعمائر العسكرية التي أقامها علي الجبهة الشمالية في محاولة لصد غارات العناصر المتبربرة علي حدود الإمبراطورية (١) . لذلك قرر الإمبراطور جستنيان شراء صداقة الآفار ، وأبلغ مجلس الشيوخ Senato بذلك ، موضحا أن هدفه هو حماية الجبهة الشمالية من غارات العناصر المتبربرة عليها . وكان من رأيه أنه سواء إنتصر الآفار علي هذه العناصر أو هزموا منها ، فان الإمبراطورية سوف تستفيد (٢) .

ولم توضح المصادر ماهية هذه الإستفادة التي سوف تجنيها الإمبراطورية من إنتصار الآفار أو هزيمتهم ، والغالب أن استفادة الإمبراطورية من إنتصار الآفار علي العناصر المتبربرة علي الجبهة الشمالية للإمبراطورية هو وقف تدفق سيل هذه العناصر علي جبهة الدانوب ، وقيامهم بدور حماة هذه الجبهة كمحالفين للإمبراطورية . أما في حال هزيمة الآفار ، فسوف تتخلص الإمبراطورية من عدو جديد طامع فيها. وعلي أية حال فقد تم عقد تحالف Foedus بين الإمبراطورية والآفار في نفس العام ٥٥٨ م. ، وتعهد فيه الآفار بالخضوع للإمبراطور وقتال أعدائه ، مقابل الجزية السنوية . وقد غمر الإمبراطور جستنيان رسل الآفار بعطفه وكرمه ، وقدم لهم الكثير من الهدايا ، تمثلت في الثياب الحريرية ، والحلي الذهبية ، والفرش الوثير ورحل الرسل عائدين إلي بلادهم وهم يشعرون بالرضا والسعادة (٣) .

(١) عن كل ما يتعلق بالإمبراطور جستنيان وعصره راجع :

إسحق غنيم : إمبراطورية جستنيان ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ .

(2) Obolensky : Op. cit , PP. 476 - 477 .

(3) Obolensky : Op. cit , P. 477 .

وقد لعب الآفار دورهم كحلفاء إمبراطوريين Imperial Foederati بهمة واقتدار ، وأخذوا في غزو أعداء الإمبراطورية في المنطقة الواقعة بين جبال القوقاز وجبال الكربات ، فدمروا إمبراطورية الانتاي Antae – بين جبال الكربات ونهر الدونتس Donets – وأستعبدوهم ، وشنوا الحرب علي العناصر ذات الأصل الهوني مثل السابيري Sabiri – علي الشاطئ الغربي للكاسبيان – وهزموهم ، حاربوا بنجاح ضد عناصر البلغار – بين جبال القوقاز ونهر الدون – والأتيجور Utigur ، والكوتريجور Kotrigurs ، وهما من عنصر الهون وكانا يعيشان علي شاطئ نهر زوف – وفي عام ٥٦٢ م. قاموا بغزوة كبيرة في وسط أوروبا وظهروا عند جبال الألب Elbe ، وهددوا ماركيات مملكة الفرنجة في أوستراسيا Austrasia .

وهكذا وفي أقل من عشر سنوات كانت معسكرات الآفار تستقر علي ضفاف نهر الدانوب وجبال الألب وقد زالت ومحيت من علي وجه الأرض العديد من القبائل الصقلبية والبلغارية أما من بقي من هذه القبائل فقد خضعوا لسيطرة وحكم الآفار ، وتعهدوا بدفع الجزية السنوية لهم رمزا للخضوع والتبعية (١) .

علي أن علاقات الآفار بالإمبراطورية البيزنطية أخذت تدخل في طور أكثر خطورة ، ذلك أنه في نفس العام ٥٥٨ م. أرسل خاقان الآفار (يسمي الخاقان أو

(1) Menander : Fragment 5 .
Theophylactus Simocatta , VII , P. 8 .
Gibbon : Op . cit , Vol 4 , P. 292 .
Bury : Op. cit , Vol II , P. 315 .
Obolensky : Op. cit , P. 477 .
Hauptmann : Les Rapports , P. 148 .

الخان) ويدعي بجان Bajan ، بسفارة الي القسطنطينية يطلب من الامبراطور جستنيان السماح لهم بعبور الدانوب والاستقرار في إقليم بانونيا Pannonia ، وقد علم الإمبراطور سرا ، عن طريق أحد رسل الآفار ، أنهم يضمرون الشر والخيانة ، وأنهم سيعبرون الدانوب ، سواء قبل الإمبراطور أو رفض ، لذلك عمل علي عرقلة رسلهم ، وأعطي تعليماته إلي حاكم مؤيزيا Moesia ، وسكثيا Scuthia ، بالعمل علي تقوية الدفاع علي نهر الدانوب (١) ، ثم سمح للرسل بالانصراف ومنحهم الهدايا المعتادة ، والأموال التي استخدموها في شراء الملابس والأسلحة من القسطنطينية . وقد رأي الإمبراطور أنه ليس من السياسة في شئ رفض بيعها لهم، لكنه أرسل تعليماته سرا إلي جستين ، الوالي البيزنطي لمدينة قولخيس Colchis ، علي ساحل البحر الأسود إلي الشمال الشرقي من طرابيزون ، أن يستولي علي أسلحة الآفار حينما يمرون عبر إقليمه في طريقهم إلي بلادهم ، وقد نفذ جستين أوامر الإمبراطور (٢) . وكانت هذه الحادثة بداية العداء بين الآفار والإمبراطورية البيزنطية ، ولم يمتد العمر بالإمبراطور جستنيان لكي يري النتائج التي ترتبت علي هذه الحادثة ، لكن لم يمضي الكثير من الوقت علي وفاته في عام ٥٦٥ م. حتي قاد بجان خاقان الآفار ، قومه وعبروا الدانوب ، حيث أمنوا لأنفسهم البقاء في ولايات البلقان ، التي منيت علي أيديهم بالكوارث في الأعوام الستين التالية ، كما يتضح ذلك من عرضنا علي الصفحات التالية .

خلف جستنيان علي العرش ، الإمبراطور جستين الثاني (٥٦٥ – ٥٧٨ م) الذي ورث ضمن ما ورثه عن جستنيان ، عداء الآفار المتزايد ، فبعد أيام قليلة من اعتلائه العرش ، إستقبل جستين الثاني سفارة من الآفار ، وتمشيا مع سياسته تجاه أعداء الإمبراطورية المختلفين ، التي تتسم بالكبرياء والأنفة ،

(1) Menander : Fragment 5 .

(2) Bury : Later Roman Empire , Vol II , PP . 315 - 316 .

رفض دفع الجزية السنوية للآفار [1] . وهكذا منحهم الفرصة لكي يظهروا عداءهم واضحا للإمبراطورية ، خاصة بعد أن أصبحوا قوة يحسب حسابها في ذلك الوقت .

ذلك أن الآفار أخذوا في القيام بدور نشط في منطقة وسط أوروبا ، وكان اللومبارديون والجيبداي Gepidae ، حتي ذلك الحين ، هما القوتان الأساسيتان علي حدود الدانوب وفي منطقة بانونيا ، لكن دخول الآفار الحومة غير الموقف من أساسه ، فقد ازدادت العلاقات سوءا بين اللومبارديين والجيبداي ، واشتعلت الحرب بينهما ، واضطر ملك اللومبارديين ألبوين Alboin أن يطلب المساعدة من الآفار ، وعقد مع الخاقان بجان معاهدة تحالف ، تعهد فيها ألبوين بدفع عشر ما يملكه اللومبارديون من الماشية للآفار ، مقابل مساعدتهم له في الحرب ضد الجيبداي ، وأن يستولي الآفار ، علي أراضي الجيبداي في حال الانتصار عليهم [2] .

وقد قام الآفار من جانبهم بمهاجمة الجيبيداي من ناحية الشمال الشرقي ،

---

(1) Menander : Fragment 14 .

John of Ephesus : Ecclesiastical History translated from syriac by Payne - Smith, Oxford , 1860 , Part VI , P. 24 .

(2) Paul The Deacon : History of the Lombards PP. 50 - 52 .

Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. ed. Bury , vol I , 1976, P. 195 .

Hauptmann : Les Rapports , PP. 138 , 150 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 47 .

راجع أيضا :

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي ، الاسكندرية ، ١٩٩١ ، ص ٢٠٨ .

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقاتهم بالقوي المجاورة ، ص ١٢ .

علي حين هاجمهم اللومبارديون من ناحية الشمال الغربي ، وفي المعركة التي دارت علي ضفاف نهر الدانوب ، ذُبح قونيموند Kunimund ملك الجيبيداي علي يد ألبوين ملك اللومبارديين وهرب عدد من الجيبيداي ووقع الباقون منهم تحت سيطرة الآفار ، خاصة أولئك الذين تمسكوا بالبقاء في أراضيهم واستولي الآفار علي أراضي الجيبيداي تحقيقا لاتفاقهم السابق مع اللومبارديين (١) .

وهكذا أصبح اللومبارديون في محنة قاسية ، إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآفار ، بعد أن أصبح هؤلاء مجاورين لهم من الناحية الشمالية الشرقية ، بعد أن استولي الآفار علي أراضي الجيبيداي ، وبدا وكأن اللومبارديين لم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم استبدلوا عدوا بعدو آخر ولهذا فقد أقدموا علي الهجرة أو ما يعتبر المرحلة الأخيرة في هجرتهم ، فانطلقت جموعهم في عام ٥٦٨ م. بقيادة زعيمهم ألبوين إلي الأراضي الإيطالية ، فاجتازوا جبال الألب واخترقوا إيطاليا ، ونجحوا في الاستقرار في السهول الشمالية الفسيحة ، دون مقاومة تذكر وأقاموا دولتهم في تلك البلاد (٢) . وهكذا كان للآفار دور هام في هجرة اللومبارديين وفتحهم لشمال إيطاليا واستقرارهم هناك .

بعد رحيل اللومبارديين إلي ايطاليا ، احتل الآفار أراضيهم ، وبذلك بسطوا سيطرتهم علي كل السهل الهنغاري وأصبحوا قوة مسيطرة في وسط

---

(1) Hartmann : Italy under the Lombards , P. 195 .

Baynes : The Successors of Justinian C. Med. H. vol II , ed . Bury , P. 268 .

(2) Hartmann : Op. cit , P. 196 .

Breheir : Op. cit , P. 47 .

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي ، ص ٢٠٨ .

أسامة زيد : اللومبارديين ، ص ص ١٢ - ١٣ .

أوروبا ، وسادة إمبراطورية امتدت من بوهيميا إلي الدانوب الأدني ، ومن جبال الألب إلي السهول الجنوبية لروسيا ، وتمركزوا في وادي نهر تيس (Tisza Theiss) – في وسط أوروبا – وأدي ذلك بطبيعة الحال إلي تغيير ميزان القوي في هذه المنطقة (١) .

لم يكن منتظرا بعد كل ما بلغه الآفار من قوة ، أن يقبلوا رفض الإمبراطور جستين الثاني دفع الجزية السنوية لهم ، ومن ثمة بدأ الآفار في تهديد ممتلكات الإمبراطورية في إقليم تراقيا ، فأرسل اليهم جستين الثاني الجيش في عام ٥٦٩ م. بقيادة طيبريوس – الذي صار إمبراطورا فيما بعد – والتقي بهم في إقليم تراقيا وأحرز الانتصار عليهم (٢) . ولم يلبث الآفار ان ركزوا إهتمامهم علي مدينة سيرميا Sirmium التي تقع في شمال إقليم اليريا ، والتي تمتعت بمركز إستراتيجي ممتاز والتي تعتبر مفتاح التحصينات البيزنطية في هذه المنطقة ، وهذا ما دفع خاقان الآفار بچان إلي فرض الحصار بهدف الاستيلاء عليها حتي يفتح الطريق أمامه للوصول إلي باقي التحصينات البيزنطية وقد صمدت المدينة في وجه الآفار ، وأرسل الإمبراطور جستين الثاني قائده طيبريوس في عام ٥٧٤ م. مرة ثانية لحرب الآفار ، ولكنه هزم أمامهم هذه المرة ، واضطر الإمبراطور جستين الثاني إلي أن يعقد معهم تحالفا مقابل تعهده بدفع جزية سنوية تقدر بثمانين ألف

(1) Obolensky : The Empire and its Northern Neighbours , PP. 477 - 478 .
Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 47 .

(2) Johannis Biclarensis : Chronica Minora , ed . by Th. Mommsen Berlin , 1894 , Vol II , P. 212 .

نوميسماتا [1] .

وقد حاول الامبراطور طيبريوس الأول (٥٧٨ - ٥٨٢ م) استغلال هذا التحالف مع الآفار ، واستخدمهم في كبح جماح السلاف ، الذين كانوا قد عبروا الدانوب في فترة مبكرة من القرن السادس الميلادي ، وانتشرت غاراتهم في بلاد البلقان ، مسببة فزعا هائلا لأهالي القسطنطينية ذاتها .

وحسب رواية المؤرخ ميناندر ، فإن الإمبراطور طيبريوس أرسل مندوبا عنه ، قاد ستين ألفا من الفرسان الآفار إلي والاشيا ، حيث هاجموا السلاف ، ونهبوا أراضيهم ، واخضعوهم لسيادتهم [2] ، والجدير بالذكر أنه منذ ذلك الحين ، أصبح السلاف من رعايا الآفار ، وأصبحت غارات هذين الشعبين غارات مشتركة [3] .

علي أن الآفار ما لبثوا أن نقضوا هذا التحالف مع طيبريوس ، وعادوا لمحاصرة مدينة سيرميا ، وقد اقترح الامبراطور طيبريوس أن يزوج ابنته من خاقان

(1) Mennder : Fragment 34 .

Obolensky : Op. cit , 478 .

Breheir : Op. cit , PP. 47 - 48 .

Hauptmann : Les Raports , P. 160 .

والجدير بالذكر أن النوميسماتا هي عملة ذهبية بيزنطية ، كانت تساوي واحدا علي اثنين وسبعين من الرطل من الذهب ، وكانت النوميسماتا تنقسم إلي ١٢ ميلياريسيا ، التي تنقسم بدورها إلي اثني عشر فلسا ، انظر :

Runciman : Byzantine Civilisation , Seventh impression , 1975 , P. 174 .

(2) Menander : Fragment 64 .

John of Ephesus , VI , P. 24 .

(3) Vasiliev : Op. cit , Vol I , PP. 178 , 196 .

Toynbeé : Op. cit , P. 633 N 6 .

الآفار بچان ، مقابل تخليه عن أطماعه في سيرميا . لكن بچان الذي كان يدرك تماما انشغال الامبراطور طيبريوس في الحرب ضد الفرس ، رفض عرض الامبراطور ، واستمر محاصرا للمدينة ثلاث سنوات (٥٧٩ - ٥٨٢ م) واستولي علي المناطق المحيطة بها ، ثم استسلمت المدينة ذاتها في النهاية للآفار في ٥٨٢ م. قبل موت طيبريوس بزمن وجيز (١) .

وهكذا سقط هذا الحصن الهام في يد الآفار ، وأصبحت أنهار السافا ، الدرافا ، والدانوب تحت سيطرة الآفار كما أصبح خاقان الآفارهو السيد الجديد لمنطقة البلقان ، أما أهالي هذه المنطقة فقد كانوا تحت رحمته تماما ، ونقتبس فقرة مما ذكره المؤرخ ميخائيل السرياني (٢) Michel le Syrien لندرك مدي معاناة الأهالي في هذه المنطقة اذ قال (٣) :

" هوجم الرومان من جديد ، بواسطة شعب متبربر لعين ، ورجال ذوي شعور مشعثة ، قدموا من الشرق الأقصي ، يسمون بالآفار ، وكذلك هوجم الرومان علي يد شعب آخر جاء من الغرب هم السلاف ، وأيضا من أولئك المعروفين باسم

(1) Menander : Fragment 65 .

- Theophylactus Simocatta : I , ch. 3 , PP. 44 - 45 .

- Theophanes : I , P. 278 .

- Lemerle : Invasions et migration des les Balkans , depius l'epouque Romaine Jusqu'n au VIII e Siécle , Revue Historique , vol CCXI , 1954 , P. 289 .

- Obolensky : Op. cit P. 480 .

- Hauptmann : Lea Rapportes , P. 160 .

- C. Med. H. vol II , Part I* , ed . Hussey , P. 68 .

(2) Chabot , la chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 - 1904 , X , P. 12 .

اللومبارديين، كل هؤلاء كانوا تحت سيادة الخاقان أو ملك الآفار ، اذ حاصروا مدن الرومان وغيرها من الحصون ، وقالوا للأهالي " إرحلوا عن بلادكم ، إزرعوا واحصدوا ونحن فقط الذين نأخذ محصولكم " .

من هذا يتضح مدي معاناة الأهالي في منطقة البلقان من جراء هذه الغارات المدمرة ، والتي إستمرت بنفس العنف حتي توفي الإمبراطور طيبريوس في ٥٨٢ م. وخلفه الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، وفي السنة الأولي من حكم هذا الأخير (٥٨٢ - ٥٨٣ م) قام الآفار والسلاف بغارة كبير ، وصلوا فيها إلي القسطنطينية ذاتها ، وحاصروا سور انستاسيوس خارج العاصمة ، كما أغاروا علي الممتلكات البيزنطية في البلقان ، واستولوا علي مدينة سينجيد نوم Singidunum (بلغراد الحالية) ، علي نهر الدانوب ثم ساروا شرقا ، واستولوا علي مدينة انخيالوس Anchialus المطلة علي البحر الأسود إلي المغرب من مدينة القسطنطينية ، ونزلوا جنوبا وهاجموا بلاد اليونان .

وقد عرض لهذه الغارة الكبيرة عدد من المؤرخين المعاصرين وتناولها بعضهم بصفة عامة ، مثل يوحنا بيكلارنسيس الذي قال (١) : " إن السلاف انتشروا في مدن كثيرة في تراقيا ، ونهبوها ثم تركوها وهي خاوية ... ونهب الآفار تراقيا ، وحاصروا سور القسطنطينية العظيم " .

وذكر ميناندر هذا المعني نفسه ، وقال إن عدد الغزاة من الآفار

(١) النص اللاتيني هو :

" Sclavini in Thracia multas urbes Romanorum Pervadunt .... Avares Thracias Vastant et regiam urbem a muro longo obsident " .

Johannis Biclarensis , chronica , vol II , P. 215 .

والسلاف وصل إلي المائة ألف رجل ، حين هاجموا تراقيا وبلادا أخري كثيرة (١) .

أما يوحنا الأفسوسي فقال عن هذه الغارة (٥٨٢ – ٥٨٣ م) ما يلي (٢) :

" تغلب شعب لعين يسمي بالسلاف ، علي كل بلاد اليونان ، وإقليم تساليا وتراقيا ، واستولوا علي المدن وعلي العديد من الحصون ، ونهبوها واحرقوها ، واستعبدوا أهاليها ، ونصبوا أنفسهم سادة علي كل الاقليم ، واستقروا فيه بالقوة ، وتصرفوا فيه كما لو كان ملك خاص بهم ، دون خشية الله ، لان الملك (الإمبراطور البيزنطي) كان مشتبكا في الحرب مع الفرس ، وأرسل كل جيشه إلي الشرق ، وقد عاشوا في الإقليم في أمان تام ، واستقروا فيه ، وانتشروا قريبا وبعيدا كما لو أن الله قد أباحه لهم ، ونهبوا وأحرقوا وأخذوا الأسري ، وامتدت غاراتهم حتي وصلت إلي السور الخارجي للمدينة (القسطنطينية) وشتتوا قطعان خيل الإمبراطور. وكان عددها يقدر بالآلاف ، كما فعلوا نفس الشئ نفسه مع كل ما وجدوه في طريقهم " .

وإن كان يوحنا الأفسوسي قد ذكر أن السلاف هم الذين قاموا بهذه الغارة ولم يذكر شيئا عن الآفار ، الا أن الثابت أن السلاف في هذه الفترة الزمنية (٥٨٢ – ٥٨٣ م.) كانوا من رعايا الآفار ، وتحت سيادتهم ، وكانت غاراتهم مشتركة ، كما سبق أن أوضحنا .

---

(1) Menander : Fragments 47 , 48 .

(2) John of Ephesus : Ecclesiastical History Part III , translated from syriac by Payne - Smith, Oxford , 1860 , PP.432 - 33 .

وقد عرض المؤرخ المعاصر أفاجريوس لهذه الغارة أيضا فقال عنها (1)

" قام الآفار بهجومين علي سور انستاسيوس ، واستولوا علي سينجيد ونوم ، إنخيالوس وكل الهيلاس ، والمدن والحصون الأخري ، واستعبدوا السكان ، وخربوا وأحرقوا كل شئ صادفوه في طريقهم " .

وهناك دليل أثري يؤكد غزو الآفار والسلاف في هذه السنة ٥٨٢ - ٥٨٣ م. لبلاد اليونان ، وهذا الأثر يتمثل في وجود تخريب في سوق أثينا Circa يرجع تاريخه إلي العام ٥٨٢ - ٥٨٣ م. ما زال باقيا حتي اليوم (2) .

والجدير بالذكر أن أفاجريوس استعمل كلمة الهيلاس Hellada في نصه ولا ندري ماذا يقصد بالهيلاس علي وجه التحديد ، هل يقصد بلاد اليونان ؟ وإذا كان يقصد بلاد اليونان فهل يقصد بها شبه جزيرة تساليا فقط ، أم تمتد لتشمل أيضا شبه جزيرة البلوبونيز ؟

لقد قام المؤرخ كاراتيس Charanis بعمل دراسة وافية شيقة ، أوضح فيها استخدام كلمة الهيلاس Hellada في أعمال المؤرخين البيزنطيين خلال القرون الميلادية السادس والسابع والثامن ، أمثال بروكوبيوس Procopius أجاثياس Agathias ، ميناندر Menander ، افاجريوس Avagrius مالالاس Mallalas ، الامبراطور جستنيان في قوانينه الجديدة Novellae ، يوحنا الأنطاكي John of Antioch البطريرك نقفور Nicephorus Patriarchae ، ثيوفانيس Theophanes وغيرهم .

(1) Evagrius : Historia Ecclesiastica , VI , Ch. 10 .

(2) Toynbeé : Op. cit , P. 634 .

وقد أثبت كارانيس من خلال دراسته هذه ، أن بروكوبيوس حين ذكر كلمة الهيلاس Hellada ، فانه كان يعني أقاليم بلاد اليونان القديمة ، وعلي وجه التحديد الاقليم الذي يقع جنوب ثرموبيلاي Thermopylae (Boudonitza) في اقليم تساليا ، ويشمل أيضا شبه جزيرة البلوبونيز Ploponnesus ، وأن المؤرخين الذين جاءوا بعد بروكوبيوس قد أخذوا عنه هذا التعريف لكلمة الهيلاس (١) .

لذلك فما عناه المؤرخون – خاصة ميناندر ، افاجريوس ، وثيوفانيس ، ببلاد اليونان التي خربها الآفار والسلاف انما هي بلاد اليونان بما فيها البلوبونيز أيضا .

وعلي أثر هذه الغارة المدمرة التي قام بها الآفار ضد ممتلكات الامبراطورية في عام ٥٨٢ – ٥٨٣ ، إضطر الامبراطور موريس لشراء السلام منهم ، بدفع مبلغ كبير من المال علاوة علي الجزية السنوية المعهودة (٢) . لكن الآفار لم يخلدوا للسكينة في الفترة التالية بل هددوا السلام في عام ٥٨٦ – ٥٨٧ م. حين قاموا و ورعاياهم السلاف بغارة أخري كبيرة ، شملت الأقاليم التي تقع جنوب مؤيزيا Moesia وسكثيا Scythia ، ثم حاصروا المدينة الهامة سالونيك (٣) في ٢٢ سبتمبر ٥٨٦،

(1) Charanis P. : Hellas in the Greeke Sources of Six th , Seventh , and Eighte Centuries , in late Classical and Medieval Studies in Honor of Albert Mathias Friend , princeton university press university press , 1953 , PP. 161 - 173 .

(2) Hauptmann : Les Rapportes , P. 157 .

(٣) تعتبر مدينة سالونيك ، المدينة الثانية في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية ، وأهم قاعدة للاسطول البيزنطي في البحر الايجي ، ومرفأ لإصلاح السفن التي يصيبها التلف ، وهي عاصمة أقليم مقدونيا .

عن كل ما يتعلق بسالونيك ومميزاتها ونشاطها التجاري راجع :

اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، دار المعارف ، الاسكندرية =

ولمدة سبعة أيام ثم رفعوا الحصار عنها وهاجموا بلاد اليونان (الهيلاس) (١) .

وقد أقدم خان الآفار علي تصرف خطير ، كانت له نتائج بعيدة المدي ، بالنسبة لتوزيع الخريطة السكانية في منطقة البلقان وبلاد اليونان قاطبة . فقد أخذ خلال غزواته في أعوام ٥٨٢ – ٥٨٣ – ٥٨٦ – ٥٨٧ م. في إجبار السكان الأصليين من اليونان والرومان علي الرحيل ، وأحل محلهم عناصر أخري من رعاياه السلاف ، وسجل ذلك كل من المؤرخين افاجريوس ، يوحنا الإفسوسي ، ويوحنا بيكلارنسيس (٢) .

وقد تابع خاقان الآفار هذا الاسلوب فيما قام به بعد ذلك من غزوات ، وكان السكان الأصليون من اليونان والرومان يفرون أمام غزوات الآفار لمنطقة البلقان وبلاد اليونان ، بينما تكفل الخاقان بنقل الباقين منهم وابعادهم عن أوطانهم ، واعادة توطين سكان جدد من رعاياه في هذه الأماكن .

والأرجح أن الدافع لهذا التصرف الخطير ، هو رغبة الخاقان في إحتلال هذه المناطق إحتلالا دائما ، فضلا عن تأمين حدود امبراطوريته الشاسعة لا سيما وأن المنطقة الواقعة شمالي البلقان وحتي سيرميا كانت منطقة حيوية بالنسبة له ، حيث أنها تعتبر رأس الجسر لعبور الدانوب والوصول إلي امبراطوريته .

=١٩٨٣، ص ص ١٩٣ – ١٩٥ .

(1) Evagrius : VI , Ch. 10 .
Theophylactus Simocatta : I , P. 52 .
Theophanes : P. 253 .

(2) Evagrius : VI , Ch. 10 .
John of Ephesus : Ecclesiastical History , PP. 432 - 433 .
Johannes Biclarensis : Chronioca , 215 .

ولم يتخل الخاقان عن سياسته هذه ، بل تابعها في السنوات التالية ، وتتضح هذه السياسة بصورة أوضح من خلال عرضنا التالي للحوادث .

فقد استغل الآفار انشغال الامبراطور موريس في الحرب ضد الفرس ، وأخذوا يعيثون فساداً هم ورعاياهم من السلاف وباقي العناصر الأخري الخاضعة لهم، في إقليمي تراقيا ومقدونيا ، وفي عام ٥٩٢ م. تمكن الامبراطور موريس من عقد الصلح مع الفرس وهيأ له ذلك الالتفات إلي جبهة الدانوب ، فنقل قواته إلي هناك ، وعهد إلي قائده بريسقوس Priscus بالعمل علي ايقاف غارات الآفار والسلاف هناك . ورغم جهود بريسقوس لتحقيق هذا الهدف ، الا أن الآفار والسلاف تمكنا من الاغارة علي المدينة الهامة سالونيك في ٥٩٧ م. ولم ينقذها منهم هذه المرة الا تفشي مرض الطاعون بينهم (١) .

علي أية حال نجح بريسقوس في النهاية في إخضاع السلاف واستعاد مدينة سنجيد ونوم (بلغراد) من يد الآفار . وفي عام ٦٠٠ م. ، جري عقد الهدنة مع الآفار وثبتت حدود الامبراطورية علي نهر الدانوب ، وتعهد موريس بزيادة الجزية السنوية لهم غير أنه لم يكد يمضي سوي عدة شهور حتي عبر بريسقوس بقواته نهر الدانوب سنة ٦٠١ م. وأشعل الحرب ضد الآفار هناك ، وأنزل الهزيمة الساحقة بقوات الآفار علي نهر تيس Theiss (٢) .

ولعل في ذلك ما يوضح سياسة بيزنطة التقليدية ، فاذا كانت بيزنطة غير

(1) Theophylactus Simocatta : VII , PP. 6 - 9 .

Baynes : T[illegible]ccessors of Justinian , in C. Med. H. Vol II , P. 296 .

Brehier : Vie [illegible]rt de Byzance , PP. 50 - 51 .

(2) Baynes : Op. cit [illegible]81 .

قادرة علي خوض غمار الحرب لأي سبب من الأسباب ، كان الإمبراطور يتعهد بدفع مبلغ سنوي للعدو ، وليسميه العدو جزية سنوية ان شاء ، أما الإمبراطور فلم يكن يري ذلك المبلغ المدفوع إلا استثمارا حكيما حتي تتحسن الظروف ويصبح قادرا علي القتال ، وعندئذ يتوقف عن الدفع ويخوض الحرب ، فاذا انتصر امتنع نهائيا عن الدفع ، اما إذا هزم فانه يعود ليدفع من جديد ، في انتظار جولة أخري (١) .

علي أية حال فمن الواضح أن الانتصار الذي أحرزه بريسقوس علي الآفار في ٦٠١ م. عند نهر تيس ، لم تحرز الامبراطورية البيزنطية مثله منذ زمن جستنيان، اذ بدا وكأن الحظ أخذ يتحول إلي صف الإمبراطورية ، لولا أن الحوادث جاءت علي عكس ما يتوقع موريس ، الذي إستبدت به الحماسة لمواصلة ظفرة علي الآفار ، فأبي أن يسمح لجنده بالعودة إلي العاصمة لقضاء فصل الشتاء (٧٠٢ م.) فتمرد الجند عليه ، ونادوا بأحد قادتهم ويدعي فوقاس إمبراطوراً ، وزحفوا علي العاصمة (القسطنطينية) وقتلوا الإمبراطور موريس ، ورفعوا فوقاس إلي العرش (٦٠٢ - ٦١٠ م.) . وكان عهد فوقاس كارثة بالنسبة للحدود الشمالية للإمبراطورية بل إمتد الخطر خلال السنوات الأولي من حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م.) (٢) ، لأن حد التحصينات علي الحدود الشمالية ، الذي كان جستنيان قد بناه ، واصل انهياره آنذاك ، ولم تعد هناك قوات بيزنطية في ولاية دالماشيا بعد عام ٦٠٤ م. (٣) فتدفق الآفار والسلاف بأعداد هائلة علي منطقة البلقان ، وأخذوا يعيثون فسادا في تلك

(١) للمزيد من نظام الدبلوماسية البيزنطية راجع :

Runciman : Byzantine Civilisation , Cambridge , 1975 , PP. 155 - 162 .

(2) Theophylactus Simocatta : VIII , PP. 5 - 6 .

Obolensky : Op. cit , P. 481 .

(٣) موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٣١ .

البلاد من البحر الادرياتي حتي بحر ايجة ، وانتشروا في الليريا ، دالماشيا ، مقدونيا ، تراقيا ، ابيروس ، آخايا ، السيكلاديز ، وقد هوجمت سالونيك أكثر من مرة ، وسقطت سالونا Salona عاصمة اقليم دالماشيا في يد الآفار والسلاف في عام ٦١٤ م. ، وهرع سكانها إلي أسفل التل يلتمسون الحماية داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم ، وهكذا نشأت مدينة سبالاتوس Spalato . وحدث الشئ نفسه مع سكان مدينة ابيدوروس Epidaurus ، الذين فروا من مدينتهم واستقروا علي ساحل البحر الادرياتي في المكان الذي عرف فيما بعد باسم راجوزا Ragusa (١) . وقد كتب ايزيدور (٢) أسقف أشبيلية I Sidore Bishop of

(1) Baynes : Op. cit , P. 296 .

(٢) يسمي بالقديس ايزيدوروس St. I Sidorus ، وهو ينتمي إلي عائلة نبيلة ، فقد أبويه وهو في سن صغيرة ، فتولي شقيقه الأكبر ويدعي ليندر Leander تربيته وتعليمه ، وكان ليندر يشغل أسقف أشبيلية فكان من الطبيعي أن يوجه ايزيدور إلي تعليم الاهوت . وقد تأثر ايزيدور بآراء القديس أوجسطين (٣٥٤ – ٤٣٠ م.) والبابا جريجوري الاول (٥٤٠ – ٦٠٤ م.) . وفي عام ٦٠٠ م. أصبح ايزيدور أسقفا لأشبيلية خلفا لشقيقه ، وأخذ علي عاتقه نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين ، واليهود الذين كانوا يمثلون جزءا كبيرا من سكان أسبانيا وقد كان لعلمه الغزير وشخصيته القوية أكبر الأثر في أن يصبح زعيما هاما للكنيسة الأسبانية ، ورأس عدة مجامع دينية في توليدو ، وأطلق عليه معاصروه لقب (آخر آباء الكنيسة الغربية العظماء) .

ومن أهم أعمال القديس ايزيدور تلك الموسوعة الشاملة التي أطلق عليها اسم Ethymologiae ، ولخص فيها آراء الكتاب المسيحيين الأول في العقيدة المسيحية ، وكذلك كتابات العلماء القدماء في مختلف أنواع المعرفة الانسانية ، وتكمن أهمية هذه الموسوعة ليس فقط في محتواها ، ولكن في كيفية عرض ايزيدور لأفكاره ، وقد أصبحت هذه الموسوعة مصدرا هاما للكتاب من أجيال متعاقبة ، وخاصة الذين لم يكن بمقدورهم التعرف علي المصادر القديمة (الكلاسيكية) وخاصة المكتوبة باللغة اليونانية . وإلي جانب هذه الموسوعة الهامة هناك كتابين تاريخيين لايزيدور ، الاول هو (التاريخ الكبير أو الحوليات الكبيرة) =

Seville (١) في بداية عهد الامبراطور هرقل يقول : " ان السلاف انتزعوا بلاد اليونان من الرومان (٢) .

وان كانت هذه المقولة تنطبق علي المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان ، الا أنها لا تنطبق علي المناطق الساحلية المواجهة للبحر الادرياتي والبحر الايجي ، لان السكان الأصليين انسحبوا تحت ضغط السلاف والآفار نحو المناطق المتاخمة للبحر ، وإلي الجزر المواجهة له ، وأدي ذلك فيما بعد إلي ازدياد العنصر اليوناني وتفوقه علي السواحل الجنوبية الشرقية ، علي حين عمد العنصر الروماني إلي الاستقرار في السواحل الغربية . أما الجانب الأكبر من شبه جزيرة البلقان وخاصة داخلها ، فقد أصبح اقليما صقلبيا ، وصارت المصادر البيزنطية تشير اليه علي أنه

= Chronica Maiora ، وهو عرض للحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتي عام ٦١٥ م. والكتاب الثاني هو ، (تاريخ ملوك القوط ، الواندال ، والسويفي) ويعتبر هذا الكتاب مصدرا هاما لتاريخ أسبانيا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة في ٤٧٦ م. حتي عصر ايزيدور .

للمزيد عن القديس ايزيدور وأعماله راجع :

Fortaine J. : I Sidore de Seville et la culture Classique dans l'espagne wisigothique , 2 vols , 1959 .

(١) سيفيل هي مدينة أشبيلية وهي ميناء بحري هام في جنوب أسبانيا ، وقد تعرضت لغزو الواندال في أواخر القرن الرابع الميلادي ، ثم استولي عليها القوط الغربيون وفتحها المسلمون في عام ٧١٢ م. وأصبحت جزءا من ممتلكات خليفة قرطبة ، وبلغت درجة كبيرة من الازدهار ، وأصبح ميناؤها من أكثر الموانئ الاسبانية نشاطا ، وفي عام ١٢٤٨ م. ، استولي عليها الملك فرديناند الثالث ملك قشتاله ، وواصلت المدينة ازدهارها ونشاطها التجاري الكبير تحت حكمه .

للمزيد عن سيفيل راجع :

O'Callaghan J. F. : A History of Medieval Spain , 1975 .

(2) I Sidore of Seville : Chronica Maiora , in Patrologia Latina , LXXX III , col 1056 .

اقليم الصقالبة Sclavinia (١) .

وفي الوقت الذي كان الآفار يقومون بغاراتهم تلك علي شرق أوروبا ، لم يغفلوا أمر ايطاليا وواصلوا تحالفهم مع اللومبارديين ، ففي عام ٥٩١ م. ساعدوا ملكهم اجيلولف Agilulf في الهجوم علي الحدود الشمالية الايطالية ، وفي عام ٦٠٠ - ٦٠١ م. ساعدوه أيضا في الاستيلاء علي بادوا Padua ، وفي تخريب شبه جزيرة استريا Istria علي الساحل الشمالي للبحر الادرياتي ، كما ساعدوه في فتح مدينة مونسليس Monselice ، وفرضوا السلام علي دوق فريولي Friuli واحتلوا كريمونا Cremona ، ومانتوا Mantua في عام ٦٠٣ م. (٢) .

علي ان الآفار لم يقيموا بعد ذلك وزنا للمعاهدات المبرمة بينهم وبين اللومبارديين ولم يلبثوا أن أخذوا يشنون غاراتهم علي شمال ايطاليا ، فقد حشد خاقان الآفار جيشا كبيرا عام ٦١٠ م. وخرج علي رأسه قاصدا الاراضي اللومباردية ، وتوغل في شمال ايطاليا محدثا الخراب والدمار في كل مكان حل به ، ثم اتجه بجيشه إلي البندقية ، فتصدي لهم ، جيسولف Gisulf دوق فريولي ، ولكنه قتل علي ايديهم هو ومعظم جيشه ، وفرض الآفار الحصار علي دوقية فريولي ، فتولت روميلدا Romilda أرملة جيسولف الدفاع عن المدينة ، ويقال أنها رأت خاقان الآفار أثناء تفقده أسوار المدينة ، فاعجبت به وأرسلت اليه سرا تخبره انه اذا وعدها بالزواج فانها سوف تفتح له بوابات المدينة ، وبالفعل تم الاتفاق بينهما ،

(1) Lemerle : Invasions et migrations dans les Balkans , P. 303 ff.
Ostrogosky : Op. cit , PP. 93 - 94 .
Vasiliev : Op. cit , P. 196 .

(2) Hartmann : Italy under the Lombards , P. 2[illegible]

وسلمت له المدينة ، وقد أجري الآفار عمليات نهب وسلب واسعة النطاق لكل بيت من بيوتها ، وحملوا الأهالي أسري ، وقد أوفي الخاقان بوعده بالزواج من روميلدا ، ولكن ليوم واحد فقط ، ثم دفع بها إلي أتباعه ، وانتهي بها الأمر إلي القتل علي أيديهم ، ثم عاد الآفار بغنائمهم إلي بانونيا (١) .

ولم تستمر غارات الآفار علي ايطاليا طويلا ، وذلك بسبب انشغالهم بتحقيق أهدافهم في شبه جزيرة البلقان ، وفي العاصمة البيزنطية نفسها .

فقد شهد عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م.) صراعا عنيفا بين البيزنطيين من جهة ، والآفار من الجهة الأخري ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا أنه كان صراع حياة أو موت بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، بعد أن فرض الآفار ورعاياهم من السلاف والجيبيداي والبلغار والسيكثيين وغيرهم من القبائل ، الحصار البري والبحري علي العاصمة البيزنطية وذلك في عام ٦٢٦ م. عاقدين العزم علي الاستيلاء عليها ومستغلين انشغال الامبراطور هرقل في حربه مع الفرس الذين شنوا هجوما عنيفا علي الممتلكات البيزنطية في أرمينية وآسيا الصغري ومصر ، وبعد أن وصل الفرس إلي مدينة خلقيدونية Chalcedon علي الضفة الآسيوية لمضيق البسفور، وأصبحوا في مواجهة العاصمة البيزنطية القسطنطينية .

ورغم صعوبة الموقف بكل أبعاده ، وتأزمه إلي درجة خطيرة ، بعد أن أصبحت

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards , PP. 179 - 180 .
Hadckin : Italy and her invaders , PP. 52 - 53 , 600 , 744 ,
Hartmann : Italy under the Lombards , P. 203 .
محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي ، ص ٢١٦ .
أسامة زيد : اللومبارديون ، ص ص ٢٤ - ٢٥ .

بيزنطه وجها لوجه أمام العدوين اللذين طالما ارتعدت منهما ، وهما الفرس والآفار ، الا أن التوفيق الذي حققته بيزنطه في مواجهة هذين العدوين والانتصار الذي احرزته عليهما ، يرجع إلي عبقرية الامبراطور هرقل وخططه العسكرية الناجحة في مواجهة الفرس والآفار من جهة ، ومن جهة أخري يرجع إلي تلاحم القوي البيزنطية المختلفة من شعب وجيش ونبلاء وكنيسة في مواجهة هذه الأخطار جميعا .

ويتميز الصراع بين الآفار والدولة البيزنطية في عهد هرقل بتشابك أحداثه مع أحداث الحرب بين البيزنطيين والفرس ، حين وجد الآفار في هذه الحرب فرصتهم الذهبية لتحقيق أطماعهم والاستيلاء علي العاصمة البيزنطية ذاتها .

ونظرا لان الحرب البيزنطية الفارسية (١) قد اتسع نطاقها ، وكثرت أحداثها ، واستغرقت فترة زمنية طويلة ، ونظرا لانها ليست الموضوع الرئيسي في هذا البحث، لذلك تتم الإشارة إليها سريعا دون الدخول في التفاصيل ، بما يخدم موضوعنا الرئيسي ويلقي الضوء عليه فحسب .

فقد استأنف الفرس حربهم ضد بيزنطه وتابعوا تغلغلهم في منطقة الشرق

(١) بخصوص الحرب البيزنطية الفارسية بكافة تفاصيلها راجع :

Pisidia : De expeditione persica . Heraclias , in C. S. H. B. ed. Bonnae , 1838 - 1839 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , ed . , De Boor , Leipzig , 1880 .

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 109 .

Vasiliev : Op. cit , PP. 194 - 199 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , PP 53 - 57 .

Baynes : The Successors of Justinian , C. Med. H. vol II , PP. 287 - 300 .

الأدني ، ورغم ما حققته بيزنطه من انتصار علي الفرس في عام ٦١١ م. بعد أن أجبرتهم علي الانسحاب من قيصرية ، الا أن الهجمات البيزنطية المضادة في سورية وأرمينية انتهت بالفشل ولم تحقق ما هدفت اليه ، ومنيت الجيوش البيزنطية أمام الفرس بهزيمة كبيرة عام ٦١٣ م. بالقرب من انطاكية مما ساعد الفرس علي تقوية مراكزهم في معظم المناطق التي هاجموا بيزنطه فيها ، فتقدموا باتجاه الجنوب واحتلوا دمشق في عام ٦١٤ م. ، ثم ساروا شمالا إلي قيليقية واحتلوا قلعة طرسوس الحصينة ، كما تمكنوا من طرد البيزنطيين من أرمينية .

ولعل أقسي الضربات التي تلقتها بيزنطة في هذه الحرب هي احتلال الفرس لمدينة بيت المقدس ، بعد ان حاصروها لمدة ثلاثة أسابيع ، وحين دخل الفرس المدينة اشعلوا فيها الحرائق وأعملوا القتل والذبح في سكانها لعدة أيام ، وخربت نتيجة هذه الحرائق ، كنيسة القبر المقدس ، ووقع في قبضة الفرس الصليب المقدس ، أو صليب الصلبوت ، الذي يعتبرونه أقدس الآثار المسيحية ، والذي تألموا كثيرا لفقده اذ حمل الفرس هذا الصليب إلي عاصمتهم المدائن . وفي سنة ٦١٥ م. عاود الفرس هجماتهم علي آسيا الصغري ، وتوغلت بعض فرقهم حتي كريسوبوليس علي البسفور .

ويبدو أن خاقان الآفار وجد في هذه الظروف التي كانت تمر بها الامبراطورية البيزنطية الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافه ، فتقدم في يونيو ٦١٧ م. يطلب مقابلة الإمبراطور هرقل ، فاستجاب الإمبراطور لطلبه ، ورتب أمرهذه المقابلة، البطريق أثاناسيوس ، ووزير الخزانة كوزماس ، وتمت المقابلة في هرقلية Heraclea وهي احدي ضواحي القسطنطينية ، وتقع إلي الشرق منها وتطل علي بحر مرمرة ، وتوقع هرقل أن يطلب الخاقان زيادة الجزية السنوية التي يدفعها للآفار ، لكن ما

لبث أن خاب ظن الامبراطور حينما لم يعرض الخاقان لهذا الموضوع ، وانما طلب ما هو أفضل وأثمن ألا وهو تسليم العاصمة البيزنطية نفسها [١] .

وكان من الطبيعي أن يرفض الامبراطور هذا الطلب ، ومن إشارة بسوط الخاقان ، اندفع الآفار من مخابئهم نحو الامبراطور الذي أدرك مدي الخطر الذي يواجهه وتتعرض له العاصمة البيزنطية ، فخلع تاجه وعباءته الأ.رجوانية ، واخفاهما تحت ذراعه ، وانطلق هاربا ، فأخبر الحامية والأهالي بالخطر الذي بات يتهددهم ، وما لبثت حشود الآفار أن أخذت تتدفق إلي سهل هبدومون Hebdomon علي الطرف الجنوبي الشرقي للقسطنطينية ، حيث نهبوا كنيستي القديس كوزماس والقديس داميان ، ثم عبروا إلي القرن الذهبي وهو إلي الغرب من العاصمة ، حيث هاجموا كنيسة كبير الملائكة Archangel ، وحطموا المائدة المقدسة بها ، ووقعت في ايديهم أعداد هائلة من الأسري والسبايا ، جمعوهم من ضواحي القسطنطينية ، ويذكر المؤرخ نورمان بينز أن عددهم وصل إلي المائتين وسبعين ألف رجل وإمرأة . وان كان هذا الرقم يبدو مبالغا فيه ، وعاد الآفار بالغنائم والأسري إلي ما وراء الدانوب [٢] .

وفي ربيع عام ٦١٩ م. غزا الفرس مصر أغني أقاليم الامبراطورية البيزنطية، فأدي ذلك الغزو إلي نقص امدادات العاصمة القسطنطينية من المؤن ، لاسيما القمح الذي كان يصلها من مصر . وهكذا أصبحت معظم ولايات الشرق

(1) Baynes : Op. cit , P. 291 .
Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 54 .
Ostrogorsky : Op. cit , P. 95 .

(2) Baynes : Op. cit , P. 291 .

الأدني في قبضة الفرس ، وبدأ وكأنهم سيسترجعون أمجاد امبراطوريتهم القديمة .
وبلغ من سوء الأحوال في بيزنطة أن فكر الامبراطور هرقل ، في نقل عاصمته من القسطنطينية إلي قرطاجة Carthage في شمال أفريقية ، ليقود من هناك حركة المقاومة ضد أعدائه المتربصين به من كل ناحية . لكنه لقي معارضة شديدة من جانب البطريرك سيرجيوس Sergius ، الذي نجح في اقناع الامبراطور بالتخلي عن هذه الفكرة ، ووضع تحت تصرفه ثروة الكنيسة من الذهب والفضة لتستخدم في مواجهة هذه الأزمة ، كما أصلحت الكنيسة ذات البين بين حزبي الخضر والزرق ، وتفهم الجميع حدود وأبعاد الخطر المحدق ببيزنطه حتي بلغ الأمر إلي حد أن توزيع الخبز مجانا ، وهو حق لأهالي العاصمة وامتيازا لهم منذ افتتاح قسطنطين الأكبر للعاصمة البيزنطية في مايو ٣٣٠ م. ، قد أمكن ايقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة بين الأهالي لفقدهم هذا الامتياز (١) .

ولما كان الامبراطور يريد أن يتفرغ لحروبه في آسيا ضد الفرس ، فقد وقع معاهدة صلح مع خاقان الآفار في عام ٦١٩ م. ، وتعهد له بدفع مبلغ كبير من المال كجزية سنوية ، ثم عين الامبراطور هرقل مجلس وصاية علي ابنه وولي عهده قسطنطين الثالث ، ورأس هذا المجلس البطريرك سيرجيوس والماجستر بونوس ، وفي يوم الاثنين ٥ أبريل ٦٢٢ م. أقيم احتفال ديني كبير للامبراطور غادر علي أثره العاصمة إلي آسيا الصغري ، حيث قضي الصيف بكامله يدرب جنوده ، ثم بدأ القتال مع الفرس في الخريف من نفس العام ٦٢٢ م. وتمكن عن طريق مناورة عسكرية بارعة ان يشق طريقه إلي أرمينيا وأجبر الفرس علي ترك مواقعهم في

(1) Nicephori Patriarchae : Breviarum , PP. 10 - 12 .
Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 93 .
موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص : ٢٣٣ .

المرات الجبلية في آسيا الصغري ، فتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي علي أرض أرمينية ، وجرت بينهما معركة كبيرة انتهت بانتصار البيزنطيين وبذلك حقق هرقل أول أهدافه ، وحرر آسيا الصغري من الفرس الذين كانوا يحتلون بعض مقاطعاتها (١) .

وأثناء غياب الامبراطور هرقل عن عاصمته القسطنطينية حاول خاقان الآفار أن ينقض الصلح مع البيزنطيين ، لكن هرقل عاد سريعا إلي العاصمة ، وزاد في مقدار الجزية التي كان يدفعها للآفار بناء علي الاتفاق السابق بينهما كما أرسل بعض أقربائه كرهائن لديهم (٢) ، وذلك حتي لا تفتح أمامه جبهة قتال ثانية مع الآفار ، يكون لها تأثير سئ علي حربه مع الفرس .

وشهد عام ٦٢٦ م. أحداثا هامة وخطيرة في الصراع الدائر بين البيزنطيين والفرس من جهة ، وبين البيزنطيين والآفار من جهة أخري ، فقد صمم حاكم الفرس كسري الأول انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) علي حشد جيوشه لسحق البيزنطيين وقامت خطته علي أساس أن يستوقف أحد جيوشه هرقل بينما يزحف جيش آخر علي خلقيدونية Chalcedon ويهاجم العاصمة (القسطنطينية) ، ومن أجل ذلك اتصل الفرس بالافار أعداء بيزنطة ، وقام تحالف بين الفرس من جهة والآفار ورعاياهم من الجهة الأخري (٣) وكان هذا التحالف هو ما يخشاه هرقل ، وربما من

(1) Baynes : Op. cit , PP. 292 - 293 .
Ostrogorsky : Op. cit , PP. 100 - 101 .
(2) Ostrogorsky : Op. cit , P. 101 .
Baynes : Op. cit , P. 292 N. 2.
(3) Baynes : Op. cit , P. 295 .
Vasiliev : Op. cit , P. 197 . ==

أجل ذلك كان يحاول دائما أن يشتري ود الآفار بدفع الجزية لهم وزيادتها مرة تلو الأخري ، حتي لا يضطر لخوض حرب ضد خصمين في وقت واحد . ولكن حدث في ذلك العام (٦٢٦ م.) ما كان يخشاه هرقل ويحاول تفاديه ، وهو تعرض العاصمة البيزنطية للحصار برا وبحرا .

ففي الوقت الذي ظهر فيه القائد الفارسي شهر براز أمام مدينة خلقيدونية في أول يونية ٦٢٦ م. حيث قام باحراق ضواحي المدينة بكل ما تحتويه من كنائس ودور للسكن ، انتظر الفرس وصول الآفار ، الذين ظهرت مقدمة جيشهم أمام مدينة أدرنة في يوم الأحد ٢٩ يونية وأصبح موقف بيزنطة في غاية الخطورة ، لهذا حاول البيزنطنون تقويض هذا التحالف الفارسي الآفاري ، وأرسلوا إلي الخاقان رسولا بيزنطيا هو البطريق أثاناسيوس Athanasius الذي عرض استعداد البيزنطيين قبول كل طلباته وإجابة رغباته علي شرط واحد فقط هو أن يتخلي عن خططه في غزو القسطنطينية ، لكنه رفض وأكمل الآفار سيرهم حتي وصلوا إلي الضواحي الشرقية للعاصمة وذلك في يوم ٨ يولية ٦٢٦ م. ، وأرسلوا دوريات استطلاعية تجاه القسطنطينية قامت بعمل إتصالات بجيش الفرس المرابط أمام خلقيدونية ، عن طريق أشعال النيران ، كما قاموا بتخريب القناة المائية التي تمد العاصمة بالمياه ، وفي يوم الثلاثاء ٢٩ يولية ٦٢٦ م. وصل الآفار بجيشهم كاملا إلي أسوار العاصمة البيزنطية وكان جيشهم يبلغ عدده نحو ثمانين ألف رجل من الآفار والسلاف والجيبيداي والبلغار والسيكثيين وغيرهم من القبائل الأخري الخاضعة للآفار ، وعسكروا أمام الأسوار الواقعة في الجهة الشرقية من

═ Brehier : Op. cit , P. 56 .

القسطنطينية [1] .

وقد اتخذ الماجستر بونوس عدة اجراءات سريعة من أجل الدفاع عن القسطنطينية ، بينما أخذ البطريرك سيرجيوس يشجع ويقوي من عزيمة الشعب ، الذي كان يعاني من شدة الخوف ، وقد أرسل الامبراطور هرقل الذي كان بعيدا عن عاصمته يقاتل الفرس فصيلة من جيشه لتقوية دفاعات العاصمة وكلفها بابلاغ المسئولين في بيزنطة بأوامر الامبراطور الخاصة بخطط الدفاع ، وأخذ البطريق بونوس والبطريرك سيرجيوس يتفقدان الأسوار ويلهبان حماسة المدافعين عنها [2] .

وفي يوم الخميس ٣١ يولية أخذ الآفار يتفقدون الأسوار ، ووقع اختيارهم علي المكان المتوسط من الأسوار ، الواقع بين بابي بمبتون Pempton ، وبولياندريون Polyandrion في جنوب القسطنطينية ، وركزوا علي هذا الجزء من الأسوار ، وحشدوا أمامه الجانب الأعظم من قواتهم ، فكان السلاف علي خط المواجهة ، يليهم الآفار ، أما باقي الأسوار فقد حشدوا أمامها قوات من السلاف وباقي العناصر الأخري المشتركة معهم والخاضعة للآفار .

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , ed . Bekker , in C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 , V , PP. 194 - 201 , 401 .

Theodore Syncellus , ed . Sternbach , Analecta Avarica , Seorsum . impressum ex tomo XXX , Dissertationum philologicarum Academiae , Litterarum Cracoviensis , 1900 , PP. 8 , 21 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium ed. de Boor , leipzig , 1880 , PP. 17 , 25 .

Theophanes : Chronographia , ed. de Boor , Leipzig , 1883 , P. 315 .

(2) Theodore Syncellus, PP. 9 , 12 .

Barisié F. : Le Siége de Constantinople , par les Avares et les Slaves en 626 , dans (Byzantion) revue international des Etudes Byzantines , tome XXIV , Bruxelles , 954 , P. 380 .

ويبدو أن الآفار قد أدركوا أنه ينبغي أن تحاصر القسطنطينية بحرا أيضا ، لأن العاصمة كانت تمثل رأس مثلث يطل ضلعان منه علي المياه بينما يطل الضلع الثالث علي البر وحصارها من البر فقط يتيح لها أن تحصل علي المؤن والأغذية والامدادات العسكرية عن طريق البحر فيطول الحصار ويفشل في النهاية ، واذا حوصرت بحرا فقط ، فانها تستطيع أن تحصل علي ما يلزمها من مؤن عن طريق البر ، ويطول الحصار ويفشل أيضا ، لذلك استعان الآفار باسطول السلاف وحاصروا القسطنطينية بحرا وكان تركيزهم أشد ما يكون علي مياه القرن الذهبي في الناحية الغربية من العاصمة.

وقد اقتصرت الحرب بين الطرفين البيزنطي والآفاري حتي ذلك الوقت ، علي المناوشات المحدودة ، سواء في البر أو في البحر علي حد سواء ، وأرسل الماجستر بونوس إلي خاقان الآفار يعرض عليه أن يرفعوا الحصار عن القسطنطينية ويرحلوا، مقابل أن يدفع لهم تعويضا ماليا كبيرا ، بالاضافة إلي الجزية السنوية ، لكن الخاقان رفض هذا العرض ، وأصر علي أن يتم تسليم العاصمة له ، بعد اخلائها من أهلها ، الذين عليهم أن يغادروها دون أن يحملوا معهم أية أمتعة أو ثروات (1) .

ويبدو أن خاقان الآفار رأي أنه تشدد في مطالبه ، وأراد أن يفتح باب المفاوضات مع البيزنطيين من جديد ، فأرسل إلي المسئولين في بيزنطة يوم الأحد ٢ أغسطس ٦٢٦ م. يطلب ارسال سفارة اليه من أجل التفاوض ، وبعد مشاورات في القصر الامبراطوري بين ولي العهد قسطنطين الثالث ، والبطريرك سيرجيوس ، والماجستر بونوس ، ورجال مجلس الشيوخ (السناتو) فتقرر ارسال وفد إلي

(1) Theodore Syncellus , PP. 15 - 20 .

Barisié : Le Siége de constantinople , P. 383 .

الخاقان علي رأسه رجل الدين ثيودور سنكيلوس ، حاملين معهم الهدايا الثمينة للخاقان ، وعروض بيزنطة للسلام ، ويبدو أن القائد الفارسي شهر براز الذي كان يعسكر أمام مدينة خلقيدونية ، قد علم بأمر هذه المفاوضات ، فسارع بالعمل علي تقويضها ، فارسل ثلاثة رسل من طرفه إلي الخاقان وافوه في معسكره ، واجتمعوا به ، ويبدو انهم حرضوه ضد البيزنطيين اذ سرعان ما تغيرت سحنته ولهجته مع الرسل البيزنطيين " مثلما تتغير الحرباء " علي حد تعبير ثيودور سنكيلوس ، فعاد يصر من جديد علي ضرورة اخلاء القسطنطينية من أهلها وتسليمها اليه . وعندئذ رفض الرسل البيزنطيون شروطه وغادروا معسكره عائدين إلي القسطنطينية (١) .

كان ذلك مبررا لاشتعال المعركة بين البيزنطيين وجيش الآفار برا وبحرا في يوم الأربعاء ٦ أغسطس ٦٢٦ م. واستمر القتال علي امتداد الاسوار طوال النهار وجزء من الليل ، أصيب خلاله الطرفان باضرار بالغة ، وان كانت خسارة الآفار أكبر من خسارة البيزنطيين ، واستونف القتال بيوم الخميس ٧ أغسطس ، واختلطت أصوات آلات القتال بصيحات الحرب المرعبة ، في نفس الوقت جرت معركة بحرية كبيرة بين الأسطول البيزنطي واسطول المهاجمين كان مسرحها خليج كيراس Keras في القرن الذهبي ، وتمكن الآفار من الاستيلاء علي ملحقات قصر بلاكرناي ، الذي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من القسطنطينية ، وأخذوا في الاقتراب من القصر شيئا فشيئا ، لكن الماجستر بونوس أصدر أوامره للسفن الحربية بالالتفاف حول سفن المعتدين فأحاطوا به من كل جانب واشتعل القتال ، واندفع المقاتلون من الجانبين مهاجمين بالرماح والسيوف والحراب ، وثقب البيزنطيون سفن عديدة لاعدائهم فغرقت بمن فيها ، وكثر عدد القتلي الذين ذبحوا

(1) Theodore Syncellus : PP. 11 , 14 - 40 .

Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 323 - 348 .

بسيوف البيزنطيين ، لدرجة أن اصطبغت مياه البحر باللون الأحمر لكثرة ما سال فيها من دماء ، وأبلي المقاتلون الأرمن في الأسطول البيزنطي بلاء حسنا وقتلوا وأغرقوا عددا كبيرا من البحارة السلاف ، ونجحت اعداد أخري منهم في السباحة والوصول إلي الشاطئ ، لكن خاقان الآفار الذي كان يراقب المعركة أمر بقتلهم حتي يجبر الباقين منهم علي القتال وعدم الفرار ، الا أن اعدادا أخري منهم آثرت الفرار والاختباء في الجبال ، وانتهي أمر اسطول الآفار تماما في هذه المعركة ، وامتلأت مياه القرن الذهبي القريبة من قصر بلاكرناي بجثث القتلي وبالزوارق الخاوية التي تتقاذفها المياه هنا وهناك ، وحينما أدرك خاقان الآفار أنه خسر المعركة ، أسرع إلي خيمته وجثي علي ركبتيه وظل يلطم رأسه وصدره [1] .

وأعلن المدافعون عن القسطنطينية نبأ انتصارهم علي الملأ ، ورفعوا رؤوس القتلي من الاعداء فوق رماحهم ، مما أدي إلي انسحاب كتائب السلاف واحدة في أثر الأخري ، وخوفا من الفرسان الآفار ، انطلق السلاف فارين ، وانتقلت عدوي الفرار إلي البحارة السلاف الذين كانوا مختبئين في الجبال ، فأخذ الفرسان الآفار في مطاردتهم ، علي حين أخذ المشاة في إخلاء أماكنهم تحت أسوار القسطنطينية . وأصدر الماجستر بونوس أوامره إلي كل الجنود البيزنطيين الذين كانوا خارج أسوار العاصمة أن يدخلوا إليها ، وأخذ الجميع يحتفلون بهذا النصر العظيم ، سواء في الكنائس أو المنازل أو الشوارع ، وخرج الماجستر بونوس والبطريرك سيرجيوس في يوم ٨ أغسطس إلي خارج أسوار العاصمة واشرفا علي حرق جميع آلات الحرب التي تركها

(١) يوجد وصف تفصيلي لهذه المعركة في المصدرين التاليين :

Theodore Syncellus , PP. 12 - 40 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , PP. 6 - 24 .

المعتدون تحت الأسوار [(١)] .

أما القائد الفارسي شهر براز وجيشه ، فقد استمروا معسكرين أمام خلقيدونية ، وقال ثيودور سنكيلوس أنهم استمروا أمامها (أياما عديدة) [(٢)] بعد رفع الآفار الحصار عن القسطنطينية ، علي حين ذكر ثيوفانيس وسكيليتزيس أن شهر براز " قضي فصل الشتاء " [(٣)] أمامها ، والغالب أن شهر براز انسحب من أمام خلقيدونية في فصل الربيع من عام ٦٢٧ م. [(٤)] .

والملاحظ أن شهر براز لم يكن له دور كبير في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. ، اذ لم يشترك في هذا الحصار لا بالرجال ولا بالآلات ولا بالأسطول ، والأرجح أنه أراد من وصوله أمام خلقيدونية أن يشل حركة هجوم هرقل علي أرمينية، ويظهر للبيزنطيين أن ما أحرزه هرقل من انتصارات علي الفرس لم يكن لها قيمة كبيرة ، بدليل وصول الفرس إلي خلقيدونية المواجهة للعاصمة البيزنطية وربما أراد أن يجبر هرقل علي العودة لانقاذ عاصمته ، والدفاع عنها ضد الأعداء ، وبذلك تتاح للفرس فرصة استعادة مراكزهم في الاقاليم التي انتزعها منهم . لكن هرقل كان بعيد النظر فصمد في ميدان المعركة في الشرق ، وآثر عدم العودة إلي العاصمة ، فأفسد علي الفرس خططهم ، وهكذا لم يحقق الفرس أية مكاسب من وراء هذا التحالف الفارسي الآفاري .

(1) Theodore Syncellus , PP. 7 - 37 .

(2) Theodore Syncellus , PP. 17 - 22 .

Manjlovic : Le peuple de constantinople , dans (Byzantion) tome II , 1936 , P. 632 .

(3) Theophanes : P. 316 .

Skylitzes : Excerpta Exbreviaro Historiae , webri , Bonnae , 1840 , P. 729 .

(4) Barisié : Op. cit , P. 390 .

هذا عن الفرس ، أما الآفار ، فقد كانت خسارتهم فادحة ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا أن فشل الآفار في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. كان نقطة تحول خطيرة في وضعهم السياسي والحربي ، علي النحو الذي يتضح من خلال عرضنا التالي للحوادث .

ذلك أن العاصمة البيزنطية بما لها من موقع ممتاز علي مضيق البسفور ، وبما تملكه من ثراء ورخاء ، جذبت الآفار اليها وبهرت أنظارهم منذ أمد بعيد ، وبعد تجربة لهم فاشلة في عام ٦١٧ م. للاستيلاء علي المدينة عنوة ، لم يقتنعوا لا بالأموال ولا بالهدايا التي قدمت لهم مع هدنة عام ٦١٩ م. ، وأصروا علي الاستيلاء علي العاصمة نفسها ، وقاموا بمحاولتهم هذه في عام ٦٢٦ م. وكانت الظروف مهيأة لهم تماما في ذلك الوقت ، فالتوقيت كان مناسبا نظرا لانشغال الإمبراطور هرقل بحربه ضد الفرس ، وكان بعيدا عن عاصمته هو ومعظم فرقه العسكرية ، كما أن الاستعدادات العسكرية كانت أيضا في صالح الآفار ، اذ وصل جيشهم إلي نحو ثمانين ألف مقاتل ، وهو عدد يفوق ثلاث أو أربع مرات عدد المدافعين عن العاصمة البيزنطية ، كما أنهم أتوا بآلات حصار كافية ، وتنبهوا إلي ضرورة حصار المدينة برا وبحرا ، حتي لا تستفيد من أية امدادات عسكرية أو تموينية يمكن أن تصل إليها ورغم ذلك كله فشل الحصار ، وليس هناك من تعليل لذلك سوي أن الآفار ورعاياهم من البلغار والجيبيداي والسلاف وغيرهم من القبائل كانوا يفتقرون إلي النظام ، كما أن بعض هذه العناصر أخذت تقاتل بعضها البعض أمام ا لعاصمة البيزنطية مثل السيكثيين الذين أخذوا في قتل السلاف ، ثم تغلب عليهم السلاف بعد ذلك

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 78 - 81 .
Barisié : Op. cit , P. 395 .

وقتلوهم (١) . وقد حالت هذه المذابح المتبادلة بين هذه العناصر وبين تحقيق أهداف الحرب التي جاؤا من أجلها . وذلك علي عكس الحال بالنسبة للبيزنطيين ، الذين تكاتفت فئاتهم ، والتفوا حول قادتهم من أجل هدف معين ، وخاضوا معركة كانت بالنسبة لهم معركة حياة أو موت ، فأما الانتصار علي هذه القبائل، والإحتفاظ بعاصمتهم ، وإما يفقدون كل شئ ويصبحون عبيدا لهؤلاء البرابرة . أضف إلي ذلك أنهم كانوا يدافعون عن عاصمتهم وفقا لخطط وتدابير مدروسة ومنظمة ، اشترك في وضعها الامبراطور هرقل نفسه ، والماجستر بونوس ، كما قام الاسطول البيزنطي بدور هام في الدفاع عن العاصمة وألحق الدمار باسطول السلاف في مياه القرن الذهبي . كما قامت الكنيسة أيضا ممثلة في البطريرك سيرجيوس ورجال الدين بدور رئيسي في تقوية عزائم الشعب وبث الحماس في النفوس للدفاع عن العاصمة . وهكذا قدر للحضارة أن تنتصر علي البربرية ، وقدر لبيزنطة أن تنجو من مصير مظلم .

وقد ترتب علي فشل الآفار أمام القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. نتائج علي جانب كبير من الأهمية والخطورة . فقد أخذت قوتهم في التداعي وتخلوا وبصفة نهائية عن حلمهم في فتح العاصمة البيزنطية ، فتراجعوا إلي اقليم بانونيا مدحورين ، ولم يجرؤا بعد ذلك علي الاقتراب من القسطنطينية .

كذلك انهار نفوذهم وفقدوا هيبتهم بين رعاياهم المغلوبين علي أمرهم ، وأخذت هذه الشعوب في التمرد وخلع طاعتهم ، ولا سيما سلاف مورافيا ، الذين ثاروا ضد الآفار وأسسوا لانفسهم مملكة تحت حكم سامو (١) Samo ، وهكذا ظهرت للوجود

(١) سامو هو أحد التجار الفرنجة تولي زعامة السلاف وحكمهم لمدة ٣٥ عاما ، راجع :

Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans (Byzantion) tome , XVII , 1944 - 1945 , P. 112 .

أول دولة صقلبية في مورافيا (١) .

كما ثارت عليهم أيضا القبائل البلغارية التي كانت تسكن شمالي البحر الأسود وبحر الخزر ، وسلموا قياداتهم إلي زعيم منهم يدعي كوفرات Kouvrat ، وساعد البيزنطيين كوفرات في نضاله ضد الآفار ، وعقد معه الامبراطور هرقل تحالفا ومنحه لقب قائد بيزنطي ، وعمده عضوا في الكنيسة النصرانية ، وظل البلغار في صراعهم مع الآفار حتي استقلوا عنهم في النهاية حوالي عام ٦٤٠ م. (٢) .

ومن الشعوب التي استقلت أيضا عن الآفار بعد هزيمتهم عام ٦٢٦ م. الكروات (٣) و الصرب ، الذين كان موطنهم الاصلي وراء جبال الكربات ثم هاجروا

(1) Dvornik : The Slavs , Their early History and civilization , Boston , 1956 , American Academy of Arts and Siences , PP. 60 - 61 .

(2) Nicephori Patriarchae : P. 24 .

Theophanes : P. 357 .

Gregoire : L'origin , PP. 112 - 118 .

Runciman : A History of the First Bulgarian Empire , PP. 13 - 16 .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٩٧ .

(٣) يذكر الامبراطور قسطنطين السابع أن كلمة كروات Croats تعني في اللغة السلافية (الذين يحتلون الكثير من الاراضي) راجع :

Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio , Chapter 31 .

ويذكر المؤرخ الفرنسي هنري جريجوار أن الكروات والصرب اسمان لشعب واحد ، فقد اتخذ الكروات اسمهم من اسم قائدهم واسمه كروات Croate ، واتخذ الصرب اسمهم من اسم قائدهم ويدعي صرب Serbe ، راجع :

Cregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , P. 100 .

إلي شبة جزيرة البلقان ، وأخضعهم الآفار لسيادتهم ، وعمد الامبراطور هرقل إلي أن يضرب بهم الآفار عقب هزيمتهم عام ٦٢٦ م. ، فحرضهم علي قتالهم ، وتغلبوا عليهم ، فسمح لهم الامبراطور هرقل بالاستقرار في شبه جزيرة البلقان ، حيث سكن الكروات في المناطق الشمالية الغربية من البلقان ، وسكن الصرب في المناطق الجنوبية الشرقية ، واعترفوا جميعا بالسيادة البيزنطية (١) .

وتجدر الإشارة إلي أن الامبراطور هرقل لم يدعو الكروات والصرب لسكن البلقان ، لكنهم هم الذين كسبوا بالقوة أراضيهم داخل حدود الامبراطورية ، وكل ما فعله هرقل أنه اعترف بهم وأضفي الصفة الشرعية علي وضعهم كتابعين للامبراطورية ، وأخذ علي عاتقه تعليمهم استيعاب الحضارة البيزنطية واعتناق الديانة المسيحية . والواقع أن السيادة البيزنطية علي هؤلاء السلاف لم تكن الا سيادةاسمية ، وكل ما جنته بيزنطة من هذه التغييرات في البلقان ، هو الخلاص من غارات الآفار المتكررة علي أراضيها وطمعهم في امتلاك العاصمة البيزنطية ذاتها ، وهو الأمر الذي سبب قلقا دائما لهرقل حتي تمكن في النهاية من القضاء عليه .

واذا كان الامبراطور هرقل قد نجح في ابعاد خطر الآفار عن امبراطوريته وشجع رعاياهم علي خلع طاعتهم مما أدي إلي انكماش امبراطوريتهم اقتصارها علي اقليم بانونيا ، الا أن الفضل يرجع للامبراطور شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) في القضاء علي الآفار بصفة نهائية .

فقد اهتم شارلمان بمد نفوذه إلي بافاريا في الجنوب الشرقي من دولته ،

---

(١) بخصوص الكروات والصرب وعلاقاتهم بالآفار وبيزنطة راجع :

Constantine Porphyrogenetus : Op. cit , Chaptes 29 - 36 .

Cregoire : L'origine , PP. 101 - 103 .

وأذعن له البافاريون في البداية علي أساس الاعتراف بسيادته عليهم ، وتحويل مملكتهم إلي دوقية تحظي بنوع من الاستقلال الذاتي سياسيا وكنسيا . علي أن خروج ملك البافاريين عن الطاعة واعلانه العصيان في ٧٨٨ م. وطلبه المساعدة من جيرانه الآفار في بانونيا ، كل ذلك دفع شارلمان إلي المبادرة بخلعه ونقله إلي أحد الأديرة ، واجباره علي التنازل عن كل حقوقه وحقوق أسرته في بافاريا وادخالها في دائرة أملاك الفرنجة (١) .

وهكذا تم ضم بافاريا إلي أملاك شارلمان مما جعله في مواجهة مباشرة مع الآفار ، وقد بادرت جيوش شارلمان باتخاذ خطة الهجوم ، وتقدم اريك دوق فريولي Eric Duke of Friuli علي نهر الدانوب ، فاقتحم الحلقة الكبيرة التي أقامها الآفار من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسي لهم ، ثم توالت بعد ذلك الحملات علي الآفار حتي بلغ عددها ثماني حملات علي مدي خمسة عشر عاما من ٧٩١ – ٨٠٥ م. ، قاد منها شارلمان نفسه حملة واحدة فقط في عام ٧٩١ م. بينما قاد ابنه ببين Pepin باقي الحملات ، وكان ببين يحكم اللومبارديين في ايطاليا بعد انتصار شارلمان عليهم ، ويقول اينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان ، انه خلال هذه المعارك سالت دماء الآفار كالنهر ، حتي أن جميع نبلائهم قتلوا ، وخربت قصورهم وديارهم في بانونيا ولم يعد أحد من الآفار يعيش هناك (٢) .

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، ص ٢٥٧ .

(2) Einhard and Notk the Stammerer , Two lives of Charlemagve , P. 67 .

The Royal Annals , in " The Reign of Charlemagne " Documents on carolingian , Government and Administration , by H. R. loyn and Percival , 1975 , PP. 38 - 39 .

كما استولي الفرنجة علي كنوز هائلة من الذهب والفضة والمنسوجات الغالية والأواني النفيسة ، وكلها من الغنائم التي غنمها الآفار علي مدي أجيال متعاقبة . والمرجح أن معظمها كانوا قد نهبوه من مدن الامبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها التي طالما تعرضت للنهب من جانب الآفار . ويقول المؤرخ فيشر أن الأسلاب التي غنمها الفرنجة من الآفار ، قد اسهمت في رفع شارلمان من حالة الغني والثروة إلي حالة الثراء الفاحش والثروة الوفيرة (١) .

وهكذا تم لشارلمان القضاء علي الآفار ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، واختفوا من مسرح الحوادث التاريخية ، وتحولوا إلي سطور في كتب التاريخ .

تلك كانت سيرة شعب من الشعوب الآسيوية والقبائل الهمجية التي غادرت موطنها جريا وراء الغنائم والأسلاب ، وطمعا في الامبراطورية البيزنطية التي كانت تمثل قمة الثراء والحضارة في نظر هذه الشعوب ، وفي رحلتهم علي مدي ما يزيد علي القرنين من الزمان ، منذ اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، وحتي قضاء شارلمان عليهم في أوائل القرن التاسع الميلادي ، روع الآفار سكان المنطقة التي مروا بها أو تلك التي استقروا فيها ، وقاموا بدور يماثل الدور الذي قام به أسلافهم الهون ، وظل الآفار حتي النهاية علي وثنيتهم ، ولم يكن اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية من أجل الثقافة أو التهذيب ، أو تذوق الحضارة ، أو التأثر بالديانة المسيحية ، علي عكس الشعوب والعناصر الأخري التي أغارت علي الامبراطورية ، ثم تأثرت بحضارتها واعتنقت ديانتها المسيحية ومذهبها الارثوذكسي ، كالقوط الشرقيين ، والروس ، والبلغار ، والكروات والصرب

(١) فيشر : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، ص ٩٤ .

وغيرهم ، في الوقت الذي ظل فيه الآفار وحتي النهاية ، عناصر همجية هدفها السلب والنهب واغتصاب الأرض واخضاع الشعوب التي ساقها حظها التعس للوقوع في طريقهم .

ورغم التخريب والنهب والسلب والتدمير الذي مارسوه في الأماكن التي حلوا بها ، من بحر البلطيق إلي شبه الجزيرة المورة ، الا أنهم أثروا في مجريات الأمور في تلك المناطق بل وامتد أثر هذا التغيير إلي منطقة البلقان حتي العصور الحديثة .

فقد استعبد الآفار شعوبا كثيرة ، وضغطوا علي شعوب أخري ، مما دفعها إلي ترك أماكن استقرارها والهجرة إلي مناطق أخري ، مثلما حدث مع اللومبارديين الذين تركوا مقرهم علي نهر الدانوب ، تحت ضغط الآفار وهاجروا إلي شمال ايطاليا . كذلك ما حدث مع الأهالي من اليونان والرومان في شبه جزيرةالبلقان ، والذين اختلف المؤرخون حول ما حدث لهم من جراء هذه الغارات المدمرة ، فهناك رأي يقول أن العنصر اليوناني أبيد تماما في المناطق التي تعرضت لغزو الآفار والسلاف خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع ، ومن هذا الفريق ، المؤرخ أزيدور أسقف أشبيلية ، الذي سبق عرض رأيه في ثنايا هذا البحث ، وهناك أيضا العالم الألماني الكبير الأستاذ فلّمرير Fallmerayer ، الذي كان استاذاً للتاريخ العام بالجامعات الألمانية ، والذي عرض رأيه بهذا الشأن في كتابه عن " تاريخ شبه جزيرة المورة في العصور الوسطي " ونشر في مدينة شتوتجارت الألمانية في عام ١٨٣٠ م. اذ قال الاستاذ فلّمرير ، ان ظهور الآفار في أوروبا كان عهد جديد في التاريخ اليوناني ، لان الآفار دفعوا أمامهم السلاف وقادوهم لفتح بلاد اليونان ، وأضاف قائلا : " لقد أبيد العنصر اليوناني تماما في أوروبا ، واختفي جمال الجسد ، وسمو الروح ، وبساطة التقاليد ، والابداع الفني ،

ونقاء العنصر ، وعظمة المدن ، وهدوء القري ، وفخامة الأعمدة والمعابد ، وحتي أسماء الناس ختفت من البلاد اليونانية ، وغطت قبور اليونان القدامي ، طبقتان من مخلفات الخراب والأوحال ، التي أحدثها عنصران مختلفين جديدين (١) .   وتمثل بعض الأعمال الخالدة ، التي تتميز بروح الهللينية وبعض الآثار القديمة علي الأرض اليونانية ، الدليل الوحيد علي الحقيقة الساطعة ، بأن ثمة شعبا هللينيا كان يعيش علي هذه الأرض منذ زمن بعيد ... ولقد انتشر هذا الاعصار المروع فيما بين الجزء الأدني من نهر الدانوب ، وحتي أقصي ركن في البلوبونيز ، لذلك فانه لا توجد نقطة واحدة من الدم الهلليني النقي ، تجري في عروق السكان المسيحيين في بلاد اليونان الحديثة " (٢) .

وهناك فريق أخر من المؤرخين يؤكد علي أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ، وتمركزت في مناطق السواحل المطلة علي البحر الايجي كما تمركز الرومان علي السواحل المطلة علي البحر الادرياتي ، ومن هذا الفريق المؤرخين، نورمان بينز (٣) ، لمرل (٤) Lemerle ، استروجورسكي ، وموص .

وعلي سبيل المثال ، قال المؤرخ استروجورسكي (٥) : " انه رغم خضوع البلوبونيز للغزو السلافي لاكثر من قرنين من الزمان ، الا أن الأقاليم اليونانية لم تصبغ بالصبغة الصقلبية ، اذ حرصت السلطات البيزنطية علي المحافظة علي

(١) المقصود بهذين العنصرين الجديدين ، الآفار والسلاف .

(2) Fallmerayer J. P. : Geschichte der Hallinsel Morea Wahrend des Mittelalters , Stuttgart , 1830 , vol I , PP. III - XIV .

(3) Baynes : Op. cit , P. 296 .

(4) Lemerle : Invasions et migration des les Balkans , PP. 303 ff .

(5) O Strogorsky : Op. cit , P. 94 .

الطابع اليوناني بهذه الجهات ..... وبذلك استعاد العنصر اليوناني قوته مرة أخري وبطريقة تدريجية ، وساد علي السواحل الجنوبية والشرقية .... كما أكد العنصر الروماني وجوده علي السواحل الغربية " .

وقال المؤرخ موصي [1] : انه رغم غزوات الآفار والسلاف للبلقان الا أن السواحل المطلة علي البحر الايجي وشبه جزيرة البلوبونيز ظلت مراكز للحضارة والحياة الهللينية ، كما أن الرومان الذين فروا إلي الجزر والخلجان الادرياتية أقاموا حافة منعزلة من اللاتينية ، ظلت قائمة حتي العصور الحديثة ، وقد مات آخر ناطق باللغة اللاتينية في ١٨٩٨ م. ولم تكن لغته الا سلالة من اللسان الروماني القديم .

وهكذا نجد رأيين مختلفين تمام الاختلاف ، فالرأي الأول يقول أن العنصر اليوناني أبيد تماما ولم يبق له أثر نتيجة لغزوات الآفار والسلاف . والرأي الثاني يؤكد علي أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ولم تندثر . والأرجح أن الرأي الثاني هو الأصح لانه منذ حل الآفار بمنطقة البلقان في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، استعبدوا سكان هذه المنطقة من مختلف العناصر ، وخاصة السلاف وانطلق اعصار الآفار يعصف بموجات تتابع السلاف ويحيلها إلي تيارات عنيفة ، بما أضافوه لهذه القبائل من قوة دافعة ، وبما حرصوا عليه من انتشار في جميع أركان شبه جزيرة البلقان وبلاد اليونان وقد أدي ذلك إلي احتلال دائم من السلاف لمناطق ايلليريا ، دالماشيا ، مقدونيا ، وتراقيا ، والغالب ان هذه هي الفترة التي تم فيها صبغ المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان بالصبغة الصقلبية ، وما ترتب علي ذلك من فصل روما القديمة عن روما الجديدة

(١) موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

(القسطنطينية) ، بعد أن وجدت كتلة من العناصر الصقلبية في شبه جزيرة البلقان . ورغم الجهود العسكرية لبيزنطة لرد اعتداءات الآفار والسلاف الا أن الامبراطورية لم تعد تستطيع السيطرة علي حدودها في منطقة الدانوب بعد عام ٦٠٤ م. كما سبق أن أوضحنا .

وفي وسط الفوضي التي عمت هذه المنطقة ، بدأت تظهر مستوطنات جديدة في بلاد البلقان ، تلك المستوطنات التي كونت نواة الأمم الصقلبية الحالية ، اما السكان الاصليين من اليونان والرومان ، فقد دفعوا أمام ضغط الآفار والسلاف إلي حافتي شبه جزيرة البلقان المطلتين علي البحر الادرياتي حيث استقر الرومان ، والبحر الايجي ، حيث استقر اليونان واستمرت الهللينية داخل هذه الأراضي بنفس مستواها الطبيعي في اللغة والشخصية ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك في ثنايا البحث .

لذلك فان المقولة التي رددها الاستاذ فلّمرير ، ومن قبله ازيدور أسقف أشبيلية وملخصها أن الشعب اليوناني أبيد في المناطق التي تعرضت لغزو الآفار في البلقان وبلاد اليونان ، هي في واقع الأمر مقولة مبالغ فيها .

واذا كان هذا ما أحدثه ظهور الآفار في منطقة البلقان ، فان اضمحلال قوتهم وانهيار نفوذهم كان له أيضا آثار بعيدة المدي ، وكانت بداية هذا الاضمحلال هو فشلهم في الاستيلاء علي العاصمة البيزنطية في عام ٦٢٦م ، وتمرد شعوب كثيرة عليهم وخروجها عن طاعتهم ، واستمر اضمحلالهم حتي تم في النهاية تدمير قوتهم علي يد شارلمان في أوائل القرن التاسع الميلادي . وقد ترتب علي ذلك أن أصبح الطريق مفتوحا أمام عنصر

الفيكنج (١) ، للوصول إلي حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود ، فقد دأبوا سواء أكانوا قراصنة أم تجارا علي الاغارة علي مناطق الصقالبة علي شواطئ بحر البلطيق ، وأقاموا بهذه الشواطئ معاقل دائمة لهم ، واستطاعوا أن يضعوا ايديهم رويدا رويدا علي طريق التجارة العظيم ، الذي يتألف من شبكة الطرق المائية التي تربط بين بحيرة لادوجا والبحر الأسود ، ثم توغلوا جنوبا وأسسوا دوقية كييف التي أصبحت نواة الامبراطورية الروسية فيما بعد (٢) .

وشمل انهيار قوة الأفار مجموعة الشعوب السلافية أيضا ، التي انحسر مدها غربا ، وارتد من أعالي النمسا لتؤلف تلك البلاد اذ ذاك جزءا من امبراطورية شارلمان ، وشرع مستوطنون من جرمان بافاريا يستقرون فيها ، ويستقرون أيضا في الجزء الغربي من المجر ، التي أصبحت مناطقها الشرقية بصفة خاصة جزءا من امبراطورية شارلمان ، وبذلك عاد إلي الوجود خط حدود بانونيا الذي كان معروفا عند الرومان .

وهكذا امتد تيار النفوذ الفرنجي امتدادا حثيثا حاملا معه سمات الحضارة

(١) الفيكنج هم العناصر الشمالية (سويديون ، نرويجيون ، ودانيون وهم سكان الدانمرك) التي سكنت شبه جزيرة سكنديناوة وشبه جزيرة الدانمرك ، وهم ينتمون من الناحية العنصرية إلي الأصل التيوتوني أو الجرماني . واسم الفيكنج بمعني سكان الفيوردات أو الخلجان وهي الظاهرة الطبيعية التي امتازت بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا .

وعن كل ما يتعلق بالفيكنج وتاريخهم وحضارتهم ونشاطهم الحربي في العصور الوسطي راجع :

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢١٨ – ٢٤٧.

(٢) محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، ص ص ٣٠٦ – ٣٠٧ .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٩٨ .

المسيحية اللاتينية شرقا ، صوب الأراضي التي هي الآن ، النمسا وبولندا وبوهيميا والمجر ، بعد أن تم القضاء على العقبة التي وقفت أمام امتداده لهذه المناطق ، والتي تمثلت في شعب الآفار .

المصادر والمراجع

1 - Alexander P. : The Patriarch Nicephorus of Constativople , 1985 .

2 - Barisié F. : Le Siége de Constantinople par les Avares et les Slaves en 626 . dans (Byzantion) Revue international des Etudes Byzantines , tome XXIV , Brux elles , 1954 .

3 - Barker : Justinian and the later Roman Empire , London , 1966.

4 - Baynes N. : The Successors of Justinian , in C. Med . H. vol II, ed. Bury, Cambridge , 1976 .

5 - Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II, ed. Bury , Cambridge , 1976 .

6 - Brehier L. : Vie et mort de Byzance , Paris , 1969 .

7 - Bury Y. B. : A History of the Eastern Roman Empire , London , 1912 .

: A History of the later Roman Empire , U. S. A. , 1958 .

8 - Chabot : La Chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 - 1904.

9 - Charanis P. : Hellas in The Greeke Sources of Six th , Seventh ,

and Eighte cen.uries , in late classical , and Medieval studies , in Honor of Albert Mathias Friend , Princeton University press , 1953 .

10 - Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio , ed. Bonnae , C. S. H. B. .

11 - Deihl et Marçais : Le monde oreintal de 395 a 1081 , Paris , 1936 .

12 - Dunlop : The History of the Jewish Khazars , U. S. A. 1967 .

13 - Dvornik : The Slavs , their early History and civilization , Boston , 1956 .

14 - Einhard and Notker the Stammerer Two lives of charlemagne , translated by thorp. Great Britain , 1969 .

15 - Encyclopedia Britannica , William Benton Publisher , U. S. A., 1968 .

16 - Evagrius : Historia Ecclesastica , ed. Bidez and Parmentier , London , 1898 .

17 - Fallmerayer Y. P. : Geschichte der Hallinsel Morea wahrend des Mittelalters , Stuttgart , 1830 .

18 - Fontaine Y. : Isidore de Seville et la culture classique dans l'espagne wisigothique , Paris , 1959 .

19 - Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire , London , 1976 .

20 - Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans (Byzantion) tome XVII , Bruxelle , 1944 - 1945 .

21 - Halphen L. ed. , Eginhard , la vie de charlemagne , Paris , 1923 .

22 - Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. Vol II , ed. , Bury , 1976 .

23 - Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avers Pendant la second moitié de vi e Siécle , dans (byzantion) tome IV , 1927 - 1928 .

24 - Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from the German by Hussey , London , 1971 .

25 - Hoyet and Shodorow : Europe in the Middle Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 .

26 - Hussey Y. : The Byzantine World , London , 1955 .

27 - Johannis Biclarensis : Chronica , Chronica Minora , ed. by Th. Mommsen , Berlin , 1894 .

28 - John of Ephesus : Elcelesiastical History , translated from Syriac by Payne - Smith , Oxford , 1860 .

29 - The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , ed. Grabois , U. S. A. , 1980 .

30 - Isidore of Seville : Chronica Maiora , Patrologia Latina , LXXXIII .

31 - Lemerle : Invasions et Migration des Balkans , depuis L'epouque Romaine Jusqu'au VIII ^{e} Siécle , Revue Historique , vol CCXI , 1954 .

32 - Lot : The End of the Ancient world and the Beginnings of the Middle Ages , London , 1931 .

33 - Manojlovic : Le peuple de Constantinople , dans (Byzantion) , tome II , Bruxelles , 1936 .

34 - Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici Graeci Minores , edited by L. Dindorf , Leipzig , 1871 .

35 - Moss : The Formation of the East Roman Empire (330 717) in C. Med. H. vol IV , part I , ed. Hussey , Cambridge, 1966 .

: The Birth of the Middle Ages , Oxford , 1947 .

36 - Nicephori Patriarchae : Berviarium , ed. De Boor , Leipzig 1880 .

37 - Obolensky D. : The Empire and its Northern Neighbours (565 - 1018) , in C. Med. H. , vol IV part I , ed . Hussey , Cambridge , 1966 .

38 - O'Callaghan Y. F. : A History of Medieval Spain , 1975 .

39 - Oman : The Dark Ages , London , 1908 .

40 - Ostrogorsky G. : History of the Byzantine State , English

Trans. by Hussey , Oxford , 1968 .

41 - Painter S. : A History of the Middle Ages , 284 - 1500 , London , 1979 .

42 - Paul the Deacon : History of the Lombards , trans. from latin by Foulke , ed. by peters , Penselvania press , 1974 .

43 - Pisidia : De expeditione Persica ,

: Bellum Avaricum .

: Heraclias .

ed. Bekker , C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 .

44 - Rambaud A. : Etudes Sur L'histoire Byzantine , Paris , P. 1912.

45 - The Royal Annals , in (The Reign of Charlemagne) Ducuments on Carolingian Government and Administration , by H. R. loyn and Yohn Percival , 1975 .

46 - Runciman S. : The Byzantine Civilization . Seventh Impression , Great Britain , 1975 .

47 - Simocatta Th. : Historiae , ed , by De Bor , Leipzig , 1887 .

48 - Skylitzes G. : Excerpta Exbreviario Historiae , webri C. S. H. B. , Bonne , 1840 .

49 - Syncellus Th. , ed Sternbach , Analecta Avarica , Seorsum

Impressum ex tomo XXX , Dissertationum Philogicarum , 1900 .

50 - Theophaves : Chronographia , ed. de Boor , 2 vols , Leipzig , 1883 - 85 .

51 - Toynbeé. A. : Constantine Porphy\rogenitus and his world , London , 1973 .

52 - Vasiliev : History of the Byzantine Empire (324 - 11453) , 2 vols , wisconsin press , U. S. A.

شارل دانجو
وسياسته في الصقليتين

دكتورة
إسمت غنيم

١٩٩٢

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمتاز بعض الحقب التاريخية بظهور شخصيات تلمع في عصرها بما تنفرد به من صفات تؤهلها للقيادة ولما تقوم به من أعمال تبهر بها معاصريها . وبعض هذه الشخصيات تحقق أعمالا هامة ذات قيمة تخلد إسمها علي مر العصور ، وبعض الشخصيات التاريخية لا تترك وراءها سوي الخراب والدمار وأسوأ الذكريات لدي رعاياها ، ويسجل التاريخ ذلك أيضا .

ومن الفريق الثاني شخصية بارزة ، استحوذت علي اهتمام المعاصرين في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي ، وهي شخصية شارل دانجو Charles D'Anjou ، الذي ينحدر من العائلة الملكية الفرنسية ، وهو الأخ الأصغر لملك فرنسا لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) ، ولقد صور المؤرخون شارل دانجو بصورة قاتمة السواد ووصفوه بأنه كان شريرا ماكرا ناكثا للعهود ، وعلي استعداد أن يغرق في الدماء من يبدي أقل مقاومة لحكمه (١) . وان كان من رأي المؤرخ فازيلييف ان حكمهم هذا غير عادل (٢) ، إلا انه من خلال عرضنا لشخصية شارل دانجو وسياسته في الصقليتين ، يظهر بوضوح ان هؤلاء المؤرخين لم يتجنوا علي شارل فشجاعته التي تصل الي حد التهور ، وطموحه الشديد الذي لم يكن يقف عند حد ، وثقته الزائدة في ذاته وقدراته ، واعتداده بأصله الفرنسي ، كل ذلك دفعه إلي الشهرة والمجد ، لكنه ما لبث ان هوي به إلي أحضان الفشل والدمار ، بعد أن أساء معاملة رعاياه في صقلية وايطاليا ، وامتص مواردهم ، وأغرقهم في بحر من الدماء ،

(1) Jordan E : Les Origines de la Domination Angevine en Italie , Paris , 1909, PP. 410 - 415 .

(2) Vasiliev A : History of the Byzantine Empire , 324 - 1453 , U. S. A. , 1971, vol 11 , P. 592 .

حتي أصبح مكروها بغيضا ، وتمنوا الخلاص منه ومن العنصر الفرنسي الذي اعتمد عليه شارل في الحكم . وقد أثمر ذلك كله في النهاية وأدي إلي إنفجار ثوري رهيب في صقلية في ٢٩ مارس ١٢٨٢ م ، أطاح بحكم شارل دانجو وقضي علي آماله وطموحه في غزو العالم بأسره .

والمقصود بتعبير الصقليتين The two Sicilies جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا ، اللتين تم توحيدها علي يد روجر الثاني النورماني ، الذي اتخذ لقب ملك في يوم رأس السنة عام ١١٣٠ م . (توفي عام ١١٥٤ م .) في عاصمته بالرمو . وقد آل عرش الصقليتين في عام ١١٩٤ م. إلي هنري السادس إمبراطور الامبراطورية المقدسة (١١٩٠ – ١١٩٧ م .) عن طريق زواجه في عام ١١٨٦ م . من كونستانس النورمانية إبنة روجر الثاني ووريثة عرش الصقليتين ، وانتقل ذلك العرش إلي ابنهما فردريك الثاني (١١٩٧ – ١١٢٥ م) ثم الي أبنائه من بعده ، حتي آل إلي شارل دانجو كما يتضح من خلال هذا البحث .

والمعروف أن شارل دانجو اشترك في حملة لويس التاسع علي مصر (١) (١٢٤٨ – ١٢٥٠ م) ، لكن دوره في هذه الحملة كان دورا ثانويا كمساعد لشقيقه الملك لويس مثلما فعل شقيقاه الآخران روبرت كونت أرتوا ، والفونس كونت بواتييه وكان شارل وقتذاك لا يزال شابا صغيرا في الحادية والعشرين من عمره ، كذلك

(١) بخصوص حملة لويس التاسع علي مصر راجع :

جوزيف نسيم يوسف : العدوان الصليبي علي مصر ، هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، الطبعة الأولي ، ١٩٦٩ .

راجع كذلك :

جوانفيل : القديس لويس وحملاته علي مصر والشام ، ترجمة وتعليق الاستاذ الدكتور / حسن حبشي ، الطبعة الأولي ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ .

شارك شارل بدور محدود في حملة لويس التاسع علي تونس في عام ١٢٧٠ م [١] . ولم يصل إلي تونس إلا بعد وفاة شقيقه الملك لويس .

وتجدر الإشارة إلي أن المسلمين في جنوب ايطاليا وعلي الأخص في مدينة لوسيرا (لوتشيرا) Lucera ، كان لهم دور هام في الثورات التي قامت ضد حكم شارل دانجو في ايطاليا ، وهذه المدينة من المدن الرومانية القديمة ، لكنها دمرت علي يد اللومبارديين في عام ٦٦٣ م . وأعاد بناءها من جديد الامبراطور فردريك الثاني في ١٢٣٣ م . وشجع المسلمين علي الاقامة بها . والمعروف ان الامبراطور فردريك الثاني كان يظهر الموده للمسلمين ، فقد تربي بينهم في صقلية وتشبع بحضارتهم وقيل أنه كان يتحدث اللغة العربية ، ويتذوق الشعر العربي ، وأحاط نفسه بمستشارين من المسلمين استخدم بعضهم في الجيش وقربهم اليه وجعل بعضهم في حاشيته ، وتخطت هذه العلاقات حدود صقلية وجنوب ايطاليا إلي بلاد الشرق الاسلامي ، وكذلك بلاد المغرب فكان حكام تونس الحفصيين يدفعون له الجزية السنوية ، كما كانوا يدفعونها من قبل لوالده هنري السادس ، ولأبنائه الذين حكموا من بعده [٢] .

وقد كان المسلمون في لوسيرا مؤيدين تماما لعائلة الهوهنستاوفن ، حتي ان

(١) عن حملة لويس التاسع علي تونس ودور شارل فيها راجع : مصطفي الكناني : حملة لويس التاسع الصليبية علي تونس ١٢٧٠م . / ٦٦٨ - ٦٦٩ هـ . الاسكندرية ١٩٨٥ .

سامية عامر : حملة لويس التاسع الصليبية علي تونس ، رسالة دكتوراة لم تنشر بعد ، كلية الآداب جامعة الاسكندرية .

(٢) عن علاقات فردريك وخلفائه بالمسلمين راجع :

ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ورقة ٢٢٦ب مخطوط ، جـ ٣ ، ورقة ٢٥٢ب مخطوط .

العيني : السلوك ، جـ ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣٢ . =

أنفريد لم يطمئن علي زوجته هيلين أوف ابيروس ، وابنائه الا بين مسلمي لوسيرا ، فتركهم هناك وسار للقاء شارل دانجو في معركة بنفنتو ١٢٦٦ م . بل ان جيشه في هذه المعركة كان يشترك فيه كتائب من المسلمين . كذلك بذل مسلمو لوسيرا مساندتهم وتأييدهم لكونرادين هوهنستاوفن الذي قام بحملة عسكرية ضد ايطاليا لانتزا ع حقه الشرعي في حكم الصقليتين ، وقد تمت الإشارة لذلك كله أثناء عرضنا للحوادث التاريخية الخاصة بهذا البحث .

والجدير بالذكر أنه كان للمصادر الايطالية ، سواء المعاصر منها أو المتأخر زمنيا بعض الشئ ، وسواء كتبت باللغة اللاتينية أو اللغة الايطالية أهمية خاصة بالنسبة لهذا البحث ، ومن أهم هذه المصادر كتابات جيوفاني فيلاّني Giovanni Villani ، وبارثولوميو اوف نيوكاسترو Bartholomew of Neocastro ، وسابا مالاسبينا Saba Malaspina ، ومارينو سانيودو تورسيللو Marino Sanudo Torsello . كذلك كانت الفائدة كبيرة من المراجع الايطالية ، وعلي رأسها كتاب المؤرخ الايطالي الشهير ميشيل اماري Michel Amari عن (حرب صلاة المساء الصقلية) La Guerra del Vespro Siciliano .

وقد تمت الإشارة إلي هؤلاء المؤرخين وأعمالهم في ثنايا هذا البحث وحواشيه.

= ابن الاثير : الكامل ، حوادث سنة ٦٢٥ ، سنة ٦٢٦ هـ .

ابن خلدون : العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٨٠ .

سعيد عاشور : الامبراطور فردريك الثاني والشرق العربي ، بحث نشر في مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد الحادي عشر ، سنة ١٩٦٣ .

- Mas - Latrie L. : Traites de Paix et de Commerce et Documents divers Concernant les Relations des Chretiéns avec les Arabes de L'Afrique Septantrionale au Moyen Ages , Paris , 1866 .
- Brycc : The Holy Roman Empire , New York , 1919 .
- Kantoromicz : Fredrick The Second , 1932 .
- Van Cleve : Thc Emperor Frederick 11 of Hohenslaufen , 1972 .



CHARLES OF ANJOU

شارل دانجو

شارل دانجو ، هو الإبن الأصغر للملك لويس الثامن ملك فرنسا (١٢٢٣ – ١٢٢٦ م) ، وبلانش صاحبة قشتاله Blanche of Castile .

ولد شارل في بداية عام ١٢٢٧ م . بعد شهور قليلة من وفاة والده لويس الثامن ، وكانت والدته بلانش آنذاك في الثامنة والثلاثين من عمرها ، وقد جمع شارل في شخصه بين الأصول الفرنسية والإنجليزية والإسبانية ، فوالدته هي حفيدة الملك العظيم هنري الثاني Henry II Plantagenet ملك انجلترا (١١٥٤ – ١١٨٩م) وملكة فرنسا السابقة اليانور صاحبة اكوتين Eleanor of Aquitaine التي تزوجها هنري الثاني في ١١٥٢ بعد طلاقها من ملك فرنسا لويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠ م) . ووالدها هو ألفونسو الثامن النبيل Alfonso VIII The Noble ملك قشتاله (١١٥٨ – ١٢١٤ م) ، الذي تزوج في عام ١١٧٠ من اليانور الانجليزية ابنة هنري الثاني ، وولدت ابنتهما بلانش في عام ١١٨٨ م . وفي عام ١٢٠٠ حينما بلغت الثانية عشرة من عمرها تزوجت من الأمير لويس (الثامن) وريث عرش فرنسا كجزء من اتفاق السلام الذي عقد بين انجلترا تحت حكم خالها حنا لاكلاند Jhon Lackland (١١٩٩– ١٢١٦ م) وفرنسا تحت حكم فيليب الثاني (١١٨٠ – ١٢٢٣ م) وقد تلقت بلانش تعليمها في البلاط الفرنسي ، وكانت امرأة فاضلة ذات شعور ديني قوي حاولت فرضه علي أبنائها ، وحينما تولي لويس الثامن عرش فرنسا في ١٢٢٣ ، ابتعدت عن السياسة وشغلت نفسها بتربية ابنائها ، لكن بموت لويس الثامن المفاجئ في ١٢٢٦ ، أصبحت بلانش وصية علي أبنائها وحاكمة لفرنسا أثناء فترة قصور إبنها الأكبر لويس (التاسع) ، الذي بلغ سن الرشد في عام ١٢٣٤ ، وتسلم حكم البلاد ، وقد استمر نفوذها علي ابنها لويس أثناء فترة حكمه ، وكان لها دخل كبير في قراراته ، وفي عام ١٢٤٧ ، حينما سافر

لويس التاسع علي رأس حملته الصليبية إلي الشرق ، عادت بلانش لحكم فرنسا مرة أخري ، واستمرت القوة المهيمنة علي فرنسا حتي وفاتها في عام ١٢٥٢ عن عمر يناهز الرابعة والستين (١).

وهكذا عندما ولد شارل كانت والدته بلانش مشغولة تماما في أعباء الحكم وممارسة الشئون السياسية لفرنسا ، وعلي الرغم من ذلك أثبتت هذه السيدة كفاءة ومقدرة سياسية عظيمة ، وساعدها علي ذلك ما تمتعت به من شخصية قيادية ونشاط وافر ، وولع بالسياسة ، فاستطاعت في بداية حكمها أن تؤكد سلطة التاج الفرنسي علي النبلاء المعارضين ، وبذلت في سبيل ذلك الكثير من الجهد والوقت ، ربما بشكل حرمها من بذل رعايتها واهتمامها الشخصي لإبنها الأصغر شارل ، الذي يقال أنه ورث صفاتها الشخصية أكثر مما ورثه أبناؤها الآخرون . فضلا عن أن شارل لم يكن الأخ المفضل لدي شقيقه الملك لويس التاسع ، بل كان لويس يفضل روبرت كونت أرتوا أولا ، ثم ألفونسو كونت بواتييه بعده ، وكان شارل يعلم ذلك جيدا لذلك اعتمد شارل علي نفسه وعول علي قدراته ، خاصة بعد أن نما واشتد عوده ، ويشير المؤرخون إلي أنه كان قد ورث عن اسلافه القشتاليين لونهم الداكن (الأسمر) ووفرة نشاطهم وقوة أبدانهم ، فكان جسده مليئا بالصحة والنشاط مثله في ذلك مثل والدته ، وتلقي شارل تعليما جيدا ، ولم يفتر حماسه طيلة حياته للتعليم وميله للشعر ودراسة الفنون ، كما أخذ عن عائلته صفتي التقشف والصرامة ، فكان دائما علي استعداد للتخلي عن

(١) للمزيد عن بلانش صاحبة قشتاله راجع :

Berger E. : Histoire de Blanche de Castile reine de France , Paris , 1895 .

Wolff L. : Mortgage and Redemption of an Emperor's son : Castile and the latin Empire of Constantinaple , PP. 47 - 69 .

متعته الشخصية للسعي وراء هدف أعظم ، لكن تقشفه كان يختلف عن تقشف الملك لويس التاسع فبينما كان تقشف لويس ينبع من تقوي حقيقية كان تقشف شارل دائما وسيلة للوصول لأهدافه في السلطة والحكم ، وكان يعتقد اعتقادا راسخا بأنه جندي الله المختار وأداته لحكم العالم بأسره (١) .

وفي يناير من عام ١٢٤٦ م . تزوج شارل من بياتريس Beatrix صاحبة بروفانس ، وهي الإبنة الصغري لريموند الرابع برنجار صاحب بروفانس Raymond Brengar IV of Provance (توفي ١٢٤٥ م) ، وكان لريموند أربع بنات ولم ينجب ولدا ذكرا ، فتزوجت ابنته الكبري مارجريت في عام ١٢٣٤م . من الملك لويس التاسع ملك فرنسا وشقيق شارل ، وتزوجت الابنة الثانية وتدعي اليانور في عام ١٢٣٦ من الملك هنري الثالث ملك انجلترا ، وتزوجت الابنة الثالثة وتسمي سانشيا Sanchia في عام ١٢٤٣ من ريتشارد صاحب كورنوال Richard of Cornwall ، الذي أصبح فيما بعد حاكما علي الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٢٥٤ - ١٢٧٢م.) . اما ابنته الصغري بياتريس فلم تكن قد تزوجت ووالدها علي قيد الحياة، لذلك أوصي لها بجميع أراضيه في مقاطعة بروفانس ، أخذا في اعتباره ان بناته الثلاث اللاتي تزوجن أثناء حياته تم تعويضهن بصداق كبير ، لذلك فقد تم حرمانهن من ميراثهن في مقاطعة بروفانس مما جعلهن يشعرن بالكراهية تجاه بياتريس وزوجها المقبل .

وقد تنافس علي الزواج من بياتريس عدد كبير من ملوك اوروبا وأمرائها منهم، الملك جيمس الأول ملك أرغونة (١٢١٢ - ١٢٧٦) ، والكونت ريموند السابع صاحب تولوز (١٢٢٢ - ١٢٤٩) ، وشارل دانجو شقيق زوج أختها

(1) Leonard E. G. : Les Angevins de Naples , Paris , 1954 , PP. 41 - 47 , 60 .

الكبري مارجريت ، وقد بلغ من تصميم الأول علي الزواج منها أن نزل بجيشه محاصرا لها في بروفانس ، لكن بياتريس فضلت شارل الذي اقتحم مقاطعة بروفانس علي رأس جيش فرنسي وحرر بياتريس وتزوجها في يناير ١٢٤٦ (١) .

وعن طريق زواج شارل من بياتريس ، انتقلت مقاطعة بروفانس ليده ، وفي العام التالي مباشرة (١٢٤٧) تسلم ميراثه أيضا في أملاك والده ، ذلك أن والده لويس الثامن كان قد أوصي قبل وفاته بأن يمنح المولود ، إن جاء ذكرا ، كونتيتّي أنجو ومين Anjou and Main ، الغنيتين فتسلمهما شارل بالفعل في عام ١٢٤٧ م. ، بعد أن بلغ سن الرشد ، ورغم الممتلكات الأخري الكثيرة التي آلت إلي شارل ، كما نري فيما بعد ، الا أن نسبته إلي أنجو لصقت به في النهاية ، فهو شارل صاحب أنجو ، ولم يعرف بأنه شارل صاحب مين أو بروفانس أو نابلي أو صقلية أو غيرها من ممتلكاته ، لذلك فمن الأهمية بمكان عرض نبذه سريعة عن كونتية أنجو .

تقع أنجو في غرب فرنسا ، علي ضفاف نهر اللوار وكان قد جري انشاؤها في القرن التاسع الميلادي ، أثناء الغزو النورماني لغرب فرنسا ، وفي عام ١٨٦١ م. منحها شارل الثاني الأصلع (٢) Charles The Bald ملك فرنسا

(1) Leonard : Les Angevins de Naples , PP. 47 - 49 .
Austin Lane Poole : The Interregnum in Germany , in C. Med. H. , vol VI , Cambridge 1968 , ed. Tanner , PP. 126 - 127 .

(٢) للمزيد عن شارل الأصلع راجع :

Zumthor P. : Charles le chauve , Paris , 1957 .

(٨٤٠ – ٨٧٧م) ، لروبرت القوي [1] Robert the strong كونت تور ، الذي منحها بدوره لواحد من افصاله الاقطاعيين وهو فولك الثالث نيرا Fulk III Nerra (٩٨٧ – ١٠٤٠ م) ، الذي أسس الأسرة الحاكمة الانجويه الأولي ، وقد وحد خلفاؤه أراضي هذه الكونتية وضموا اليها في ١٠٥٤ م ، كونتية تور حتي غدت أنجو في القرن الحادي عشر الميلادي واحدة من أقوي الامارات في فرنسا ، وقد أشرف الكونتات الذين حكموها علي الطريق بين فرنسا وإسبانيا ، كما أهتموا بالتجارة ، الأمر الذي منحهم ايرادات ضخمة . وهكذا أصبحت كونتية أنجو في حالة ازدهار ورخاء اقتصادي ، وكانت العملة المستعملة في أنجو والتي تسك في تور ، واحدة من أفضل العملات تداولا في غرب اوروبا .

وعند بداية القرن الثاني عشر الميلادي ضمت إلي أنجو كونتية مين Main، وهي إلي الشمال منها ، وتحت حكم فولك الخامس (١١٠٩ – ١١٢٨) تحسنت الادارة في أنجو وبنيت قلاع جديدة بها ، وقد اشتري فولك السلام بتحالفه مع كل من ملكي انجلترا وفرنسا ، ووضع تحالفه مع ملك انجلترا هنري الأول في ١١٢٥م. حدا للتنافس علي مين ، كما أن هذه الاتفاقية كان لها شأن خطير وهام في التاريخ الوسيط ، فقد نصت علي أن يتزوج ابن فولك ويدعي جيوفري بلانتاجنيت Geoffry Plantagenet من ماتيلدا إبنة هنري الأول ملك انجلترا ،.وبناء علي هذه الاتفاقية

(١) روبرت القوي هو ماركيز نيوستريا Neustria وهي احدي المقاطعات الفرنجية ، وهو واحد من المغامرين الاقطاعيين الذين ظهروا في عهد الملك شارل الثاني الأصلع ، وامتلك روبرت كونتيات عديدة ، وحارب ضد النورمان الذين هاجموا وادي نهر اللوار ونجح في ايقاف غزوهم هناك ، وأوكل اليه الملك شارل الأصلع الدفاع عن المنطقة الواقعة بين نهري اللوار والسين ، وحكم كونتيتي تور وباريس وقد سقط قتيلا في معركة بالقرب من تور في عام ٨٦٦م .
وللمزيد عنه راجع :
Lot F : Naissance de France , Paris , 1946 .

منح فولك ابنه جيوفري حكم أنجو ، وفي عام ١١٥١م. فتح جيوفري نورمانديا وضمها إلي أنجو ، وبعد موته في نفس العام ، ورث إبنه هنري الثاني حكم أنجو ، ونورمانديا ، ومين ، وتورين ، كما ورث حقوق والدته في عرش انجلترا ، وفي عام ١١٥٤ أصبح ملكا لانجلترا ، مؤسسا بذلك أسرة البلانتاجنيت التي منحت انجلترا تقاليدها وخصائصها المميزة ، واستمرت تحكمها حتي عام ١٤٨٥م (١) ، وقد اهتم هنري الثاني بكونتية أنجو وأسس قواعد البناء الاجتماعي والاداري بها .

علي أن أنجو لم تلبث أن خرجت من يد ملوك انجلترا ، وانتقلت ملكيتها إلي ملوك فرنسا ، وذلك بعد أن فتحها في عام ١٢٠٦م. فيليب الثاني أغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣ م.) ، وضمها لممتلكاته ، ورغم ذلك فقد ظلت تنظيماتها كما هي من قبل ، واسند حكمها إلي وكيل ملكي ، وقد ظلت أنجو في يد الأسرة الحاكمة الفرنسية ، حتي آلت ملكيتها في عام ١٢٤٧م. إلي شارل الذي أسس الأسرة الحاكمة الانجوية الثانية (٢) .

وقد اتخذ شارل مقره في بروفانس ، وأخذ في التوسع علي حساب جيرانه ، فتدخل في الحرب الأهلية في اقليم الفلاندرز ، وعن طريق مساعدته للكونتيسة مارجريت في حربها ضد ابنها حنا افسنس John of Avesnes تسلم شارل

(١) عن كل ما يتعلق بأسرة البلانتاجنيت وحكمها لانجلترا راجع :

Harvey J. : The Plantagenets , U. K. 1979 , PP. 35 - 205 .

(١) بخصوص كونتية أنجو راجع :

Boussard J. : L'Anjou , in Fautier ed. , Histoire des institutions Française au Moyan Age , Vol 1,1957 .

Giullot O. : Le Comte d'Anjou et Son entourage au XIe Siécle , Paris , 1972.

Halphen L. : Le Comté d'Anjou au XIe Siécle , Paris, 1906 .

Lwis P. : Later Medieval France , Paris , 1968 .

كونتية هينولت Hainault ، واضطلع بمهمة حارس الفلاندرز ، وتدفقت قواته علي الكونتية ، الأمر الذي أغضب شقيقه الملك لويس التاسع غضبا شديدا ، فأمر شارل بترك هينولت ، وحكم سنة ١٢٥٦م أن تعطي الفلاندرز إلي حنا أفسنس (١)، وهكذا قضي علي آمال شارل في اقليم الفلاندرز ، وظل الملك لويس التاسع يشعر بتأنيب الضمير لموقفه من شارل وابعاده عن هينولت والفلاندرز ، حتي عوضه عن ذلك بتأييد ترشيحه لعرش الصقليتين ، كما سنري فيما بعد .

واذا كان شارل قد فشل في تحقيق طموحاته في اقليم الفلاندرز فإن ذلك لم يثنه عن التوسع في اتجاه آخر ، وفي عام ١٢٥٧ م اكتسب حقوق السيادة علي بعض اللوردات في سهول الألب ، كذلك اكتسب من ريموند كونت اورانج Orange حقوق الوصاية علي مملكة آرل Arles ، وفي عام ١٢٥٨م ، اعترف كونت فينتيمجليا Ventimiglia ، الذي يعتبر فصلا لجمهورية جنوا بشارل كسيد له ، وهكذا فرض شارل نفوذه علي طول الساحل الايطالي حتي سان ريمو San Remo ، وفي عام ١٢٥٩ م ، وبطريق الرشاوي والدهاء والوعود والتهديد العسكري نجح شارل في فرض سيادته علي العديد من المدن في مقاطعة بيدمونت Piedmont في شمال غرب ايطاليا . وفي العام التالي ١٢٦٠م ، استطاع شارل أم يخضع لوردات موندوفي Mondovi وسيفا Seva ، وسالوزو Saluzzo ، وبذلك أحكم سيطرته علي المقاطعة بكاملها (٢) .

ولم تلبث الظروف أن هيأت لشارل دانجو أن يقفز إلي عرش الصقليتين ، والواقع أنه في البداية لم يسع للحصول علي هذا العرش ، وانما البابوية هي التي سعت إلي ذلك ولم يكن هو بالشخص الذي يرفض مثل هذه الفرصة ،

(1) Leonard : Op. cit , PP. 48 - 49 .
(2) Leonard : Op. cit , PP. 50 - 51 .

التي وجد فيها تحقيقا لآماله وأحلامه وطموحاته العريضة في الحكم والسيطرة وتفصيل ذلك أن البابوية كانت تريد القضاء علي عائلة الهوهنستاوفن في صقلية وايطاليا ، نظرا للعداء الشديد الذي اتسمت به العلاقات بين الطرفين منذ زمن بعيد ، والذي بلغ ذروته أثناء حياة الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٤ - ١٢٥٠م) .

وبعد وفاة الامبراطور فردريك الثاني في ١٢٥٠ م ، خلفه ابنه كونراد الرابع ، الذي انجبه من زوجته إيزابيللا ابنة حنا دي برين وريثة عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ، في حكم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، لكن كونراد الرابع لم يستطع أن يصمد في وجه المعارضة في ألمانيا ، فغادرها إلي صقلية ، وحكم بها عامين فقط (١٢٥٢ - ١٢٥٤ م) بمساعدة أخيه غير الشقيق مانفريد الذي انجبه فردريك من زوجته الايطالية بيانكا لانسيا التي تنتمي إلي عائلة لانسيا الشهيرة ذات النفوذ والاقطاعات الشاسعة في اقليم كالابريا في جنوب ايطاليا . وعند وفاة كونراد الرابع في ١٢٥٤م . آل حكم الصقليتين وألمانيا الذي اقتصر علي مقاطعة سوابيا Swabia إلي ابن كونراد الرابع وهو كونراد الخامس الذي عرف باسم كونرادين Conradin وهو تصغير اسم كونراد ، وقد أطلق عليه المعاصرون اسم (النسر الصغير) أو (الأسد الصغير). وكان كونرادين قد توج ملكا علي الصقليتين في بالرمو عاصمة صقلية في عام ١٢٥٤م . وعمره آنذاك لا يتعدي العامين فقط ، وعاش كونرادين في مقاطعة بافاريا في ألمانيا تحت رعاية والدته اليزابيث ، التي كانت أسرتها تحكم بافاريا ، وتزوجت اليزابيث هذه من الكونت مينارد Mainard كونت جويزيا Count of Garizia ، فاستغل عمه مانفريد ذلك وبُعد كونرادين عن الصقليتين وأعلن نفسه ملكا علي الصقليتين في عام ١٢٥٨م ، بمساعدة بارونات المملكة

وانصاره بها (١) .

وفي نفي الوقت استأنف مانفريد الصراع مع البابوية من جديد فقد كان يهدف إلي توحيد ايطاليا وأحكام السيطرة علي الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واقامة سيادة في الشرق عن طريق فتح بلاد البلقان والاستيلاء علي القسطنطينية (٢) . كما عرف عن مانفريد ما عرف عن والده فردريك الثاني من عدم الايمان واثارة المشاكل مع البابوية ، وقد أحرز مانفريد انتصارات كبيرة ، وامتد نفوذه إلي جانب الصقليتين في توسكانيا ، وكان متحالفا مع أقوي الشخصيات في لمبارديا في شمال ايطاليا ، وهو اللورد بيلافيسيني Pelavicini ، وامتد نفوذه أيضا إلي ماركية انكونا Ancona التابعة للبابوية ، وكانت العلاقات الطيبة تربطه بجمهوريتي البندقية وجنوه ، كما استمر حكام تونس المسلمين يدفعون له الجزية السنوية التي كانوا يدفعونها لوالده فردريك الثاني ، وارتبط مع أمير أبيروس برابطة المصاهرة ، فتزوج ابنته هيلين ، كما زوّج مانفريد ابنته كونستانس من بطرس الثالث وريث عرش ارغونة (٣) .

وهكذا أخذ مانفريد في توطيد نفوذه والعمل علي تكوين امبراطورية واسعة ،

(1) Hampe K. : Geschichte Konradins Von Hohenstaufen , innsbruck , 1894 , P. 21 .

(٢) عن طموحات مانفريد وخططه تجاه شرق اوروبا راجع :

Gregoras : Historiae Byzantinae , ed. Webri , Bonn , 1829 , P. 72 .
Buchon J. : Recherches historiques sur la principauté française de Moreé , et ces Hautes Baronnies , vol 1 , Paris , 1845 , PP. 103 - 104 .

اسمت غنيم : معركة بلاجونيا ونهاية الصراع بين نيقية وإبيروس حول القسطنطينية ، الاسكندرية ١٩٨٩ ، ص ص ١٢ – ١٥ .

(3) Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 in C. Med . H. ed. Tanner , vol VI P. 184 .

وهذا ما أزعج البابوية وجعلها تعمل علي تدميره والقضاء عليه .

فقد أخذ البابا الاسكندر الرابع Alexander (١) ، الذي تولي كرسي البابوية في الفترة من ١٢٥٤ - ١٢٦١م ، في البحث عن شخص ينتمي إلي عائلة من العائلات المالكة في اوروبا ليحل محل مانفريد ملكا علي الصقليتين ، فاتجه البابا إلي ملك انجلترا هنري الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، وتم ترشيح إبنه الأصغر الأمير ادموند Edmund لهذا المنصب . وبعد مفاوضات واتصالات بين البابا والملك هنري الثالث وبارونات انجلترا ، جري رفض هذه الفكرة واصدر البابا الاسكندر الرابع مرسوما في ١٨ ديسمبر ١٢٥٨ م الغي فيه هذا الترشيح ، اما الأمير ادموند، فقد فضل أن يكون ايرل لانكستر Earl of Lancaster علي أن يكون ملكا للصقليتين(٢) .

ولم يلبث البابا الاسكندر الرابع ان توفي في ١٢٦٤م . وخلفه البابا ايربان الرابع (١٢٦١ - ١٢٦٤م.) الذي كان من أصل فرنسي ، واستأنف نفس سياسة البابوات السابقين ضد أسرة الهوهنستاوفن ومانفريد علي وجه الخصوص ، ولم يكن

(١) الاسم الحقيقي للبابا الاسكندر الرابع هو رينولد اوف سيجني Raynald of Segni ، وهو ينتمي إلي عائلة رومانية عريقة كانت تحكم كونتية سيجني ، وتولي منصب كاردينال اوستيا Ostia، وفي عام ١٢٥٨م . عندما اشتد نفوذ حزب الجبلين الموالي للملكية في ايطاليا ، داخل روما نفسها ، فر البابا الاسكندر الي فيتربو واتخذها مقرا له .

راجع :

Barraclough G : The Medieval Papacy , London , 1975 , PP. 137 - 140 .

(٢) عن تفاصيل المفاوضات التي حدثت بين البابا الاسكندر الرابع والملك هنري الثالث وبارونات انجلترا بخصوص ترشيح الأمير ادموند لعرش الصقليتين راجع :

Powicke F. : King Henry III and The Lord Edward , vol I , Oxford , 1947 , PP. 370 - 387 .

أمام البابا ايربان الرابع إلا الاتجاه صوب الأسرة الحاكمة في فرنسا للبحث عن مرشح يحل محل مانفريد ، ذلك ان المفاوضات مع انجلترا بهذا الخصوص باءت بالفشل ، ولم يكن من الممكن أن يتجه البابا صوب ألمانيا للبحث عن مرشح ضد مانفريد ، فلم يكن هناك امبراطور علي عرش المانيا في ذلك الوقت ، كما أن كونرادين صاحب الحق الشرعي في الصقليتين كان يحكم مقاطعة سوابيا وعائلة والدته كانت تحكم بافاريا ، وكان كونرادين هو حفيد فردريك الثاني أي من نفس عائلة الهوهنستاوفن ، وكان يطالب بحقه في حكم الصقليتين . اما في أسبانيا فقد كان الملك جيمس الأول ملك أرغونة علي أتم الاستعداد لتولي عرش الصقليتين ، لكن البابا كان لديه من الاسباب ما يحول دون الموافقة عليه ، لان جيمس كان في حالة تحالف مع مانفريد ، ونتيجة لهذا التحالف تزوجت كونستانس ابنة مانفريد من بطرس الثالث ابن جيمس . اما ملك قشتاله ألفونسو العاشر Alfonso X (١٢٥٢ – ١٢٨٤م) فقد كان مغضوبا عليه هو الآخر من جانب البابا نظرا لعلاقات الود والصداقة التي ربطت الفونسو بحزب الجبلين Ghibellines [1] ، في شمال ايطاليا ، وهو الحزب الملكي المعارض للبابوية .

وهكذا لم يعد أمام البابا ايربان الرابع سوي أن يتجه نحو فرنسا وملكها لويس التاسع ، فارسل اليه في باريس في ربيع عام ١٢٦٢ مندوبا عنه هو البرت بارما Albert Parma ، الذي أوضح للملك لويس رغبة البابا في تقليد عرش مملكة الصقليتين لأمير من أسرته . غير أن الملك لويس رفض أن يتقلد هو أو أحد

(١) عن هذا الحزب ونشأته وميوله راجع :

Buchler J : Die Hohenstaufen , 1995 .

Hyde : Society and Politics in Medieval Italy , 1973 .

اسمت غنيم : زواج التحالف في العصور الوسطي ، الاسكندرية ١٩٨٦ ، ص ٤٧ ، حاشية رقم ٢ .

ابنائه هذا العرش ، وانما وافق علي اقتراح بارما ان يتولاه شقيقه الأصغر شارل كونت أنجو ، وبينما كان بارما يستعد للتوجه إلي بروفانس حيث مقر شارل ، وصل إلي باريس رسول من البابا إلي بارما يأمره بتأجيل بحث هذا الموضوع (١) . أما عن الأسباب التي دفعت البابا لذلك فهي خاصة بالمفاوضات التي بدأت بينه وبين مانفريد ، بعد أن أرسل مانفريد سفارة إلي البابا معلنا استعداده للحضور إلي مقره في فيتربو Viterbo (٢) من أجل التفاوض ، وقد وصلت سفارة مانفريد إلي البابا في أوائل نوفمبر ١٢٦٢م وبقيت في المقر البابوي حتي نهاية نوفمبر ، ثم أعادها البابا إلي مانفريد حاملة شروطا محددة منها : الاعتراف بحق مانفريد وخلفائه في مملكة الصقليتين دون النظر لادعاءات كونرادين ، علي أن يدفع مانفريد مبلغا كبيرا من المال للبابوية ، بالاضافة إلي الجزية السنوية ، وقد اشترط البابا

(1) Jordan : Les Origines de la Domination Angevine , PP. 374 - 378 .

(٢) تقع فيتربو في جنوب اقليم توسكانيا ، شمال غرب روما ، وهي مدينة رومانية قديمة ، وقد كانت تتبع الكونتيسه ماتيلدا صاحبة توسكانيا ، ولكنها منحتها للبابوية وقفا لصالح كنيسة القديس بطرس في ١١١٥م . وقد امتازت المدينة بالجو المعتدل والمناظر الطبيعية الخلابة ، واتخذتها البابوية العاصمة الثانية لها بعد روما والمقر الصيفي للبابوات في القرن الثالث عشر الميلادي . وفي عام ١١٤٥م . بعد أن اختار أهالي روما مجلسا للشيوخ (سناتو) من بينهم ، غضب البابا ايو جينيوس الثالث (١١٤٥ – ١١٥٣ م.) ونقل كرسي البابوية والمقر الدائم إلي فيتربو ، وأثناء الصراع بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة ، عانت المدينة من الحوادث الدامية العديدة ، كما كانت مسرحا للمقابلة التي تمت بين الامبراطور اوتو الرابع Otto IV والبابا اينوسنت الثالث في عام ١٢٠٩م . ومع استمرار اقامة البابوات في فيتربو ، اقيمت مباني عديدة من القصور والكنائس ، وقد تم انتخاب عدد من البابوات في فيتربو منهم ايربان الرابع و جريجوري العاشر ، ويوحنا الحادي والعشرين ونيقولا الثالث ، ومارتن الرابع ، وقد مات بها كل من البابوات الاسكندر الرابع وكليمنت الرابع وادريان الخامس ويوحنا الحادي والعشرين . عن فيتربو وتاريخها راجع :

Signorelli G. : Viterbo nella Storia della chiesa , 2 vols , 1907 - 1940 .

كذلك شرطا كان من المستحيل علي مانفريد تحقيقه ، وهو أن يسمح للمعارضين السياسيين الذين سبق ان نفاهم من مملكته بالعودة اليها مرة أخري ، وأن يعيد اليهم أراضيهم التي سبق أن صادرها(١) . وطبيعي أن يرفض مانفريد هذا المطلب ، لان معني موافقته علي عودة المعارضين لحكمه إثارة المشاكل والاضطرابات السياسية في أنحاء مملكته ، والارجح أن البابا كان يهدف فعلا إلي هذا حتي يشغل بهم مانفريد عن الفتح والغزو ومضايقة البابوية ، وحتي لو وافق مانفريد علي هذا الشرط فان مستشاريه ورجاله الذين منحهم مانفريد هذه الأراضي بعد مصادرتها لن يوافقوا علي التفريط فيها واعادتها لأعدائهم . وقد رفض مانفريد ورجاله شروط البابا ، وفكروا في عرض شروط جديدة علي البابا ايربان الرابع الذي لم ينتظر وأرسل إلي مندوبه في باريس البرت بارما يكمل مفاوضاته مع شارل دانجو (٢) .

مالبث شارل وشقيقه الفونسو كونت بواتييه أن زارا باريس واجتمعا مع شقيقهما الأكبر القديس لويس ، وبحث الجميع موضوع الحملة الصليبية الجديدة التي أزمع لويس القيام بها ضد المسلمين ، كما بحثوا أيضا موضوع ترشيح البابوية لشارل لتولي عرش الصقليتين . وبعد تبادل الرسل والزيارات في اورفيتو Orvieto (٣) حيث كان البابا ايربان الرابع موجودا ، وباريس ، وبروفانس حيث مقر شارل ، وافق الجميع علي مشروع الاتفاقية بين شارل والبابا ، ووقع البابا

(1) Jordan Op. cit , P. 389 - 495 .

(2) Jordan : Les Origines , PP. 389 - 401 .

(٣) اورفيتو ، مدينة في وسط ايطاليا ، بين روما وفلورنسا ، وتقع إلي الشمال من فيتربو ، وفي ٥٨٨م أصبحت دوقية لومباردية ، وبعد فتح شارلمان لايطاليا أصبحت كونتية في ٧٧٣م . ومنذ القرن التاسع أصبح الكونتات بها يخضعون لحكام توسكانيا ، لكنها حصلت علي استقلالها بعد موت الكونتيسة ماتيلدا في ١١١٥م . وأصبحت قومونا مستقلا حتي ١٤٤٨م حينما ضمت إلي الممتلكات البابوية ، وقد اشتهرت بكاتدرائيتها التي بنيت فيما بين ١٢٩٠ - ١٣٧٠ ، علي طراز فن المعمار القوطي الايطالي المتأخر ، راجع : =

ايربان الرابع في ٢٦ يونيو ١٢٦٣ مرسوما بموافقته علي هذه الاتفاقية ، وأصبحت الاتفاقية عند نهاية يوليو ١٢٦٣م سارية المفعول ، وأصبح شارل دانجو هو بطل الكنيسة المنتظر (١) .

ويجد الدارس لشروط هذه الاتفاقية انها كانت في صالح البابوية أكثر مما كانت في صالح شارل ، فقد نصت علي مايلي :

١- تخلي الملك الجديد للصقليتين عن المركز الذي كان للحكام النورمان من حيث أنه ممثل البابا Apostolic Delegate في مملكته .

٢- لا يكون له أي رأي فيما يتعلق بشغل المناصب الشاغرة في الكنائس ، أو السلطة القضائية الكنسية .

٣- ليس من حقه أن يجبي أية ضرائب من رجال الدين ، ولا أن يمارس الحق التقليدي للملوك في التمتع بايرادات الاسقفيات الشاغرة .

٤- لا يسمح له بتقلد أي منصب في ايطاليا ، سواء في الولايات التابعة للملكية أو التابعة للبابوية .

٥- لا يسمح له بمصادرة كل أو جزء من أي اقطاع أخذته الكنيسة من التاج ، أو التقليل من قيمته بأية طريقة .

٦- يجب أن يتأكد من وجود ادارة جيدة في المملكة ، مثل تلك التي كانت موجودة أيام الملك وليم الثاني النورماني ، كما لا يجب أن

=Hyde J. : Society and Politics in Medieval Italy , 1973 .
(1) Jordan : Op. cit , PP. 392 - 401 .

يفرض علي رعاياه ضرائب مبالغ فيها .

٧- اذا أختار البابا الاستغناء عنه ، فلا يجب ان يطلب مساعدة أفصاله ضد البابا .

٨- يجب أن يمد البابا بثلاثمائة فارس أو عدد من السفن عندما يطلبها .

٩- يجب عليه ان يدفع جزية سنوية للبابوية تقدر بعشرة آلاف أونصه من الذهب .

وفي المقابل أسبغت عليه البابوية حمايتها وسمحت له أن يجبي ضريبة العُشر لمدة ثلاث سنوات من كنائس فرنسا وبروفانس وآرل . كما أخذ البابا علي عاتقه شن حملة صليبية ضد مانفريد ، كما وعد بالا يسمح لكونرادين أو أي شخص آخر ، بالمطالبة بعرش الصقليتين (١) .

وواضح مدي صعوبة وقسوة هذه الشروط ، فالملك الذي اختارته البابوية يجب أن يبتعد تماما عن الشئون الدينية في مملكته ، كما أنه ليس من حقه أن يتقلد أي منصب علماني أيضا مهما كان صغيرا داخل ايطاليا ، واذا أراد البابا أن يستغني عنه أو أن يستبدله بآخر فليس من حقه أن يعترض ، كل ما عليه أن ينفذ رغبة البابا ، كما أن الجزية السنوية التي فرضتها عليه البابوية والتي تقدر بعشرة آلاف أونصة من الذهب سنويا ، تفوق ثلاثين مرة ما كان يدفعه ملوك النورمان للبابوية. ورغم هذا فقد قبلها شارل، ويرجح المؤرخ الايطالي المعاصر

(١) فيما يتعلق بالاتفاقية بين البابا وشارل دانجو راجع :
Jordan : Les Origine de la Domination Angevine en Italy , Paris 1909 , PP. 20 - 26 .

فيلاني [1] Villani أن شارل اضطر لقبول هذه الشروط المجحفة نظرا لحث زوجته له علي قبولها نظرا لانها كانت تشعر بالغيرة من شقيقاتها اللاتي تزوجن ملوك ، مثل ملك فرنسا ، وملك انجلترا ، وملك الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد ارادت هي الاخري أن تصبح ملكة مثلها مثل شقيقاتها [2] .

غير أن الدارس لشخصية شارل ، يجد أنه ليس بالشخص الضعيف الذي يخضع لرغبات زوجته ،وان أحلامه وطموحاته الشخصية فاقت بكثير أحلام زوجته وطموحاتها ، وقد أجمع المؤرخون المعاصرون والقريبو العهد من عصره ، سواء في الغرب مثل فيلاني وسانيوبو [3] ، أو في الشرق مثل

(١) جيوفاني فيلاني Giovanni Villani ، كاتب حوليات عاش في الفترة من ١٢٧٥ - ١٣٤٨م. وهو ينتمي إلي عائلة بورجوازية من كبار تجار فلورنسا ، وقد أخذ فيلاني ينتقل بين ايطاليا وفرنسا في الفترة ١٣٠٤ - ١٣١٢م. وعند عودته لفلورنسا عمل كقائد عسكري ومشرف علي تحصيناتها ، وكان معروفا بميوله نحو البابوية وكان أحد أعضاء حزب الجلف الموالي لها ، وكتب حوليات Cronica غطي فيها تاريخ فلورنسا وخاصة الحوادث التاريخية التي عاصرها ، وأسلوبه واضح بسيط ، استطاع به أن يقدم معلومات غزيرة بموضوعية محسوسة وعقلية محبة للبحث والتحقيق ، وقد توفي أثناء وباء الطاعون الذي اجتاح ايطاليا في عام ١٣٤٨ ، راجع :

The Illustrated Encyclopedia of Medieval civilization , U. S. A. 1980 , P. 700 .

(2) Villani : Cronica , Florance , 1823 , vol 11 , PP. 129 - 130 .

(٣) هو المؤرخ الايطالي مارينو سانيوبو تورسيللو Marino Sanudo Torsello ، من مواليد البندقية ، عاش خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وله عدة مؤلفات أهمها لموضوع هذا البحث هو كتابه (تاريخ مملكة رومانيا) Istoria dell Regno di Romania ، والمقصود برومانيا ، كما هو معروف ، الامبراطورية البيزنطية ، وقد كتبه سانيوبو باللغة اللاتينية لكن لم يصل إلي أيدي المؤرخين إلا الترجمة الايطالية لهذا الكتاب . ويرجع كل من =

جريجوراس [1] . ، علي أن طموحه واحلامه لم تكن تقف عند حد معين ، وانه كان يحلم بتكوين امبراطورية تضم البلاد المطلة علي البحر الأبيض المتوسط في الشرق والغرب علي حد سواء ، وأنه كان يعمل بكل الهمة والنشاط ، وبكل العنف ونفاذ الصبر ، علي تحقيق أحلامه في السيادة والفتح [2] . لذلك فقد قبل شارل شروط البابا لان بمقدوره فيما بعد ، أن يحولها لخدمة مصالحه واهدافه الشخصية .

وهنا يبرز تساؤل هو ، مع معرفة الجميع بصفات شارل هذه وطموحه ، ألم يعتري الخوف البابا اربان الرابع من مثل شخصية شارل دانجو ومدي خطرها علي

= المؤرخين وولف Wolff وجياناكوبلوس Geanakoplos ، ان الأصل اللاتيني قد فُقد ، وترجع أهمية هذا الكتاب الذي كتبه سانيودو في الفترة المبكرة من القرن الرابع عشر إلي أنه كان شاهد عيان لمعظم الحوادث التي ضمنها كتابه ، كذلك اعتمد فيه علي تقارير ووثائق رسمية ، كانت موجوده في عصره واندثرت الآن ، ولسانيودو مؤلفان آخران أحدهما مجد فيه الحروب الصليبية ويعرف باسم Secreta Fidelium Crucis وعرف عن سانيودو انه من أشد المعجبين بتاريخ الحروب الصليبية . أما العمل الثالث لسانيودو فهو الرسائل المتبادلة بينه وبين الامبراطور اندرونيقوس الثاني باليولوجوس (١٢٨٢ – ١٣٢٨م.) وعرفت باسم Epistulae ، والمزيد عن سانيودو ومؤلفاته راجع :

Wolff : Studies in the Latins Empire of Constantinaple , London , 1976 . Ch. v, P. 45 ff .

Geanakaplos : The Emperor Michael Paleaologus and the west , U. S. A. ,1959 , P. 9 , P. 395 .

(١) هو المؤرخ البيزنطي نقفور جريجوراس عاش في الفترة من ١٢٩٥ – ١٣٥٩م. والمزيد عنه راجع : اسمت غنيم : امبراطورية في المنفي ، ثيودور لاسكاريس وأحياء الامبراطورية البيزنطية في نيقية ، ص ١٨٩

(2) Villani : Cronica , val 1 , P. 320 .
Sanudo : 1 Storia Regno di Romania , in Hapf , Chroniques Créco - Romanes, Berlin , 1873 , P. 138 .
Gregras : Historiae Byzantinae , cd. Wcbri , Bonn , 1829 , in C, S. H. B. P. 123 .

البابوية نفسها فيما بعد ؟

الارجح ان البابا ايربان الرابع قد وضع هذه الشروط القاسية متصورا ان شارل سوف يلتزم بها وينفذها بكل الدقة ، وبذلك يحمي البابوية نفسها من خطر شارل ، في الوقت الذي وضع فيه البابا نصب عينيه القضاء علي خطر مانفريد وأسرة الهوهنستاوفن في ايطاليا ، ولم يكن مانفريد بالشخص الهين أو الضعيف ، لذلك بحثت البابوية عن شخصية قوية لها امكانات مادية وعسكرية كبيرة تمكنها من القضاء علي مانفريد ، فوجدت في شارل دانجو الرجل المناسب للاضطلاع بهذه المهمة ، خاصة وان شقيقه الملك لويس ملك فرنسا يمكن أن يسانده بما تملكه فرنسا من امكانات ، بعد ان اقتنع الملك لويس بحكم ورعه وتقواه ان مانفريد يمثل خطرا داهما علي المسيحية وعلي البابوية ، وربما كانت مساندة لويس لشقيقه شارل في الوصول لعرش الصقليتين أيضا هو نوع من التكفير عن الذنب ، فقد كان حب لويس لشارل أقل من حبه لباقي أشقائه ، كما سبق ان أشرنا ، كما أن زوجة لويس الملكة مارجريت كانت تكن الكراهية لشارل بصفة خاصة لأنه حرمها من ميراثها في مقاطعة بروفانس بزواجه من شقيقتها ، وكانت دائمة التحريض لزوجها لويس ضد شقيقه شارل ، يضاف لذلك موقف الملك لويس من فتوحات شارل في اقليم الفلاندرز ، وما حدث من اجباره علي ترك هينولت والانسحاب من الاقليم ، لذلك حاول لويس تعويض شارل وتأييده ومساندته في الوصول لعرش الصقليتين ، وهذا بالطبع ما أسعد البابوية وجعل كفة شارل ترجح لدي البابا ايربان الرابع الذي كان فرنسيا كما سبق أن أوضحنا ، وكان منحازا لأبناء وطنه .

ولم يمض وقت طويل حتي اكتشفت البابوية أي نوع من الرجال اختارته للدفاع عنها ، اذ سرعان ما نقض شارل ، وقبل اكتمال عامين ، شروط المعاهدة التي وقعت بينه وبين البابا ايربان الرابع (في يوليو ١٢٦٣) ،

وذلك بقبوله منصب سناتور روما .

فقد وقع صراع عنيف علي حكم روما ، التي لم يكن البابا ايربان الرابع يقيم بها ، والتي عين لها هيئة من الرجال الصالحين Boni Homenes ليحكموها ويقومون فيها بأعباء الادارة ، إلا أنهم لم يكونوا أكفاء لادارة المدينة ، في الوقت الذي قام فيها صراع بين حزب الجبلين الموالي للملكية وأسرة الهوهنستاوفن ، وحزب الجلف Guelf (١) الذي يدين بالولاء والتأييد للبابوية . فاقترح حزب الجبلين علي مانفريد قبول تنصيبه سناتور علي روما ، ورتب زوج ابنته بطرس الثالث زيارة لروما بدعوي الحج ، ولكنه في واقع الأمر كان يقوم بالدعاية لصهره مانفريد ويقدم نفسه هو لهذا المنصب كمرشح بديل لمانفريد.غير أن هذه الخطة قوبلت بالمقاومة من جانب الكاردينال ريتشارد انيبالدي Richard Annibaldi الذي كان موجودا بالمدينة وقام باقناع حزب الجلف بالرد علي ذلك باختيار سناتور قوي يكون مخلصا لهم ، وبناء علي اقتراحه رشحوا لمنصب سناتور روما شارل دانجو ، الذي وافق علي قبوله(٢) . وهكذا ضرب شارل عرض الحائط باتفاقيته مع البابا التي نصت علي عدم السماح له بتقلد أي منصب في ايطاليا سواء في الولايات التابعة للملكية أو تلك التي تكون تابعة للبابوية . وهكذا أوقع البابا ايربان في ورطه ، خاصة بعد أن أعلن عدد من الكرادله ضرورة عقاب شارل علي تحديه للبابوية وعدم احترامه لشروط اتفاقيته مع البابا . لكن البابا ايربان الرابع استسلم للأمر الواقع ووافق علي تعيين شارل سناتور لروما بصفة مؤقتة ، وذلك لسببين ، الأول : هو رغبته في عدم معارضة اقتراح الكاردينال انيبالدي واهانة من يؤيدونه في روما من حزب الجلف ، والسبب

(١) عن حزب الجلف راجع :
اسمت غنيم : زواج التحالف ،ص ٥٢ حاشية رقم ٢ .

(2) Jordan : Les Origines , PP. 458 - 460 .

الآخر: هو تصميم مانفريد علي فتح مدينة لوقا Lucca وهي المدينة التابعة لحزب الجلف في توسكانيا ، وكانت الوحيدة التي لم تستسلم لمانفريد في هذا الاقليم ، لذلك فقد حاصرها مانفريد وأجبرها علي الاستسلام ، فأحكم سيطرته علي وسط ايطاليا خلال الشهور الأولي من عام ١٢٦٤ ، مما اضطر البابا للموافقة علي تعيين شارل سناتور علي روما بعد أن وجد نفسه محاصرا من جانب مانفريد (١) .

ولم يلبث البابا ايربان الرابع ان توفي في مدينة بروجيا Perugia في ٢ أكتوبر ١٢٦٤م. وتم انتخاب خليفة له كاردينال سابينا Sabina ، الذي اعتلي كرسي البابوية في ١٥ فبراير تحت اسم كليمنت الرابع Clement IV (٢) .

وفي ٢٣ مايو ١٢٦٥ ، دخل شارل دانجو روما ، واتخذ له مقرا بها في قصر السناتور في الكابيتول Capitol ، وعندما علم مانفريد بذلك صاح قائلا : " لقد دخل الطائر القفص " ، واعتقد ان الأمر لن يحتاج لأكثر من حملة صغيرة يطوقه فيها ويجبره علي الاستسلام (٣) .

أما شارل فقد أرسل إلي زوجته الكونتيسة بياتريس في فرنسا لكي تلحق به

(1) Jordan . Op. cit , PP. 460 - 468 .

(٢) الاسم الحقيقي للبابا كليمنت الرابع هو جي فولكوا Guy Foulquoi ، وهو ينتمي إلي عائلة فرنسية من النبلاء ، وقد درس القانون في باريس ، وخدم في تولوز تحت سلطة الفونس دي بواتييه الذي قدمه لشقيقه الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد اتخذه لويس مستشارا له ، ثم عين كاردينالا لاسقفية سابينا ، في وسط ايطاليا ، حتي تم انتخابه بابا وظل في هذا المنصب من ١٢٦٥ حتي وفاته في ١٢٦٨ ، للمزيد عنه راجع :

Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 , in C. Med. H. vol VI , P. 183 .

Jordain : les Registres de Clement IV , Paris , 1945 .

Barraclough G. The Medieval Papacy , U. K. , 1955 , PP. 118 - 140 .

(3) Jordan : Les Origines , PP. 524 - 526 .

في روما ، فجاءت بالفعل في ديسمبر من نفس العام ، وطلب شارل من البابا ان يحضر اليه في روما لكي يتوجه هو وزوجته ملكا وملكة علي عرش الصقليتين ، لكن البابا كليمنت لم يرغب في ان يترك مقره في بروجيا ، ولذلك ارسل خمسة كرادلة ليحلوا محله وقاموا بمراسم التتويج في كنيسة القديس بطرس في ٦ يناير ١٢٦٦ ، وأصبح شارل دانجو ملكا علي الصقليتين (١) .

وهكذا أصبح هناك أكثر من ملك علي عرش الصقليتين مانفريد هوهنستاوفن وزوجته هيلين اوف ابيروس ، وآل إلي مانفريد العرش بالميراث ، وشارل دانجو وزوجته بياتريس اوف بروفانس ، وانتقل العرش إلي شارل عن طريق اختيار البابوية، وكان لابد من معركة عسكرية يقضي فيها أحدهما علي الآخر وينفرد بالعرش .

ولم يرغب شارل في أن يمكث طويلا في روما ، لكي يتمكن من أن ينهي موضوع مانفريد بأسرع ما يمكن ، حتي يتفرغ بعد ذلك لتحقيق طموحاته في الفتح والغزو ، فترك في روما حامية صغيرة وخرج منها بكامل قواته في ٢٠ يناير وسار بجيشه علي طريق Via latina ووصل إلي سبرانو Ceprano علي نهر ليري Liri في جنوب ايطاليا ، وقد عبرت قوات شارل النهر عن طريق جسر مقام عليه كان مهملا لكنه أوفي بالغرض ، وعسكر في حصن كابوا Capua شمال نابولي ، وكان شارل قد فكر في حماية قاعدته في نابولي ، بوضع خطة للاستيلاء علي الحصون الواقعة علي طول نهر فولتورنو (٢) Volturno ، وبالفعل تمكن جيشه من

(1) Villani : Cronica , vol 11 , PP. 142 - 143 .

(٢) نهر فولتورنو هو النهر الرئيسي في جنوب ايطاليا ، وهو ينبع في اقليم Apennicn جنوب شرق روما ، ويجري أولا في اتجاه الجنوب ثم ينحرف إلي الغرب بمسافة ١٧٥ كم ليصل إلي خليج Gacta علي البحر التيراني ، وهو يبعد عن نابولي بنحو ٣٥ كم إلي الشمال ، راجع:
Lexicon Universal Encyclopedia , U. S. A. 1980 , v0l 19 , P. 632 .

الاستيلاء علي اثنتين وثلاثين قلعة وحصناً كان من بينها الحصن الكبير سان جيرمانو San Germano علي تل كاسينو Cassino الذي سقط في يد شارل في ١٠ فبراير ١٢٦٦ . وفي الوقت الذي عسكر فيه مانفريد بقواته في أعالي نهر فولتورنو وصل شارل بقواته إلي هناك محاولا تطويق قوات مانفريد وحصاره وحتي يضيع عليه مانفريد هذه الفرصة ، تحرك بقواته متجها نحو مدينة بنفنتو (١) Benvento فوصل اليها ووزع قواته حول المدينة ، وتبعه شارل إلي هناك فوصل بقواته إلي التل الذي يؤدي إلي مدينة بنفنتو في ٢٥ فبراير ١٢٦٦ م ولما رأي تشكيلات جيش مانفريد ، أصيب شارل بالاحباط خاصة بعد المجهود المضني الذي بذلته قواته أثناء عبورها التلال والجبال في فصل الشتاء حتي نفقت كثير من الحيوانات المستخدمة في جيشه ، وتركت كثير من العربات في الطرق غير الممهدة ،

(١) بنفنتو مدينة في اقليم كمبانيا Campania جنوب ايطاليا ، وقد دمرها القوط الشرقيون ، ولكن بعد عودة ايطاليا ليد الامبراطور جستنيان في ٥٥٤م. أعاد البيزنطيون بناءها ، وفي عام ٥٧٠م تعرضت المدينة لغزو اللومبارديين واتخذوها عاصمة لممتلكاتهم في جنوب ايطاليا ، ومنذ ذلك الحين وهي تعرف باسم دوقية بنفنتو ، وقد تمتع الادواق الذين حكموها بقدر كبير من الاستقلال وخاصة في القرن الثامن الميلادي ، وقد تمكن حكامها من صد محاولات البيزنطيين ثم المسلمين لغزو الدوقية كما ظلت مستقلة أيضا عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد اضعفتها المعارك المستمرة التي خاضتها من أجل المحافظة علي استقلالها ، وانتهي الأمر بها في القرن الحادي عشر الميلادي إلي التقسيم إلي عدة مقاطعات قام النورمان بغزو معظمها وضمها إلي مملكتهم في صقلية ، أما مدينة بنفنتو ذاتها فقد ألحقت بالممتلكات البابوية في عام ١٠٥٤ م. وظلت كذلك حتي عام ١٨٦٠م. وقد ارتبطت بنفنتو بصلات اقتصادية وثيقة بمدينة نابولي وقد بنيت في بنفنتو كاتدرائية استغرق بناءها من القرن التاسع وحتي القرن الثاني عشر وكانت تعد تحفه فنية رائعة تعبر عن الفن المعماري الذي اشتهر في جنوب ايطاليا ، وقد دمرت هذه الكاتدرائية أثناء الحرب العالمية الثانية :

بخصوص ما يتعلق ببنفنتو راجع كتاب هيرتش عن (دوقية بنفنتو) :

Hirsch : 1 L ducato di Benevento , 1968 .

ونفذ الطعام ، وبدا وكأن مقولة مانفريد أن الطائر قد دخل القفص ، فيها جانب كبير من الحقيقة فعلا (١) .

وكان الموقف حتي ذلك الوقت في صالح مانفريد تماما فما كان عليه الا ان يصمد في موقعه المحصن في انتظار وصول ابن شقيقه كونرادين من المانيا بالامدادات ، حتي يجبر الجوع شارل وجيشه إما علي التراجع أو الاستسلام ، غير أن مانفريد كان نافذ الصبر لعدة أسباب منها : عدم ثقته في ولاء رعاياه من جهة ، وما أظهره العديد من رجاله من رغبة في الاستسلام لعدوه من جهة أخري ، كما أنه كان يشك في ان كثيراً من البارونات المحليين وخاصة من حزب الجبلين المؤيد للهوهنستاوفن في ايطاليا ، كانوا في حالة تردد في الولاء له من جهة ثالثة ، ويبدو أن ما بذلته البابوية من وعود براقة لإغراء هؤلاء بالتخلي عن مانفريد قد وجدت قبولا لديهم ، يضاف إلي كل ذلك ان مانفريد لم يكن واثقا من موعد وصول كونرادين علي وجه التحديد . لهذا فبمجرد أن تلقي مددا من ثمانمائة من الالمان المرتزقة بادر بالتحرك نحو شارل لمنازلته في معركة حاسمة ، في الوقت الذي كان شارل يتجه فيه من أعلي التل إلي السهول المحيطة بمدينة بنفنتو ، لذلك أسعده أن يري جيش مانفريد يتقدم ببطء لمقابلته .

وفي اليوم التالي أي يوم الجمعة الموافق ٢٦ فبراير ١٢٦٦ ، اشتبك الجيشان في معركة ضارية عرفت في التاريخ باسم معركة بنفنتو ، حيث كانت قوات مانفريد موزعه علي النحو التالي : في المقدمة كان المسلحون من رماة السهام ، وخلفهم الفرسان الالمان يرتدون دروعا صلبه وبلغ عددهم حوالي ١٢٠٠ فارسا تحت قيادة ابن خال مانفريد ويدعي جيوردانو لانسيا Giordano Lancia ، وجلفانو اوف

(1) Leonard : Op. cit , PP. 57 - 58 .
Oman : A History of the Art of war in the Middle Ages , vol I , PP. 498 - 499 .

انجلونا Galvano of Anglona ، وخلفهم وجد الفرسان الايطاليون من لمبارديا وتسكانيا ، وبلغ عددهم نحو ألف مقاتل تحت قيادة خاله جلفانو لانسيا Gelvano Lancia أمير سالرنو ، ورافقهم نحو ثلاثمائة فارس من المسلمين بأسلحتهم الخفيفة ، اما مانفريد نفسه فقد كان في الخلف علي رأس الجسر مع الفرق الاحتياطية وهي من فرسان المملكة من حزب الجبلين وهو الحزب المؤيد للهوهنستاوفن أي المؤيد للملكية وكانوا نحو ألف فارس ، ولم يكن مانفريد يثق فيهم ثقة كاملة ، ولهذا لم يكن يرغب في استخدامهم الا اذا أحرز النصر في المعركة .

كذلك كان يصاحبه شقيقا زوجته هيلين ابنة أمير ابيروس ، وهما ريتشارد كاسرتا Richard Count of Caserta ، وتوماس كونت اسيرا Thomas Count A Cerra وأيضا حاجبه ويدعي مانفريد ماليطا Manfred Maletta وصديقه الوفي تيبالدو انيبالدي Tebaldo Annibaldi الذي ظل ملازما لمانفريد حتي النهاية (١) .

كان هذا جيش مانفريد اما جيش شارل دانجو ، فقد كانت له بعض المزايا التي رجحت كفته فقد تحرك إلي أرض أكسبته تفوقا علي عدوه وكانت في صالحه تماما ، اذ انحدرت في رفق نحو النهر ، كما كان يثق في جيشه أكثر مما أظهره مانفريد تجاه رجاله . وقد قسم شارل جيشه هو الآخر إلي ثلاثة مجموعات من الفرسان ، كما صاحبتهم مجموعة كبيرة من المشاه من رماة النشاب التي أخذت مكانها في المقدمة ، أما المجموعة الأولي من الفرسان فكانت تتكون من نحو ٩٠٠ فارس من البروفنساليين تحت قيادة المارشال الفرنسي هيودي ميربوا Hugh de

(1) Villani : Cronica , vol 11 , PP. 147 - 150; Malaspina , Saba: Historia Sicula, Muratori R. I. SS (Rerum Italicarum Scriptores) vol VIII , PP. 825 - 828 . Previté - Orton : Italy , PP. 185 - 186 .

Mirepoix ، وفيليب دي مونتفور Philip de Montfort ، وقاد شارل بنفسه المجموعة الثانية من الفرسان وتكونت من نحو ١٠٠٠ فارس جاؤا من وسط فرنسا ، يصاحبهم نحو اربعمائة فارس من حزب الجلف تحت قيادة جي جويرا Guy Guerra من فلورنسا ، كما صاحب شارل اسقف اوكسير Bishop of Auxerre وكونت اوف فيندوم Count of Vendome ، أما الاحتياطي بالمؤخرة وهم الفرنسيون الشماليون والفلمنج ، فكانوا تحت قيادة روبرت اوف فلاندرز Robert of Flanders .

وقد بدأت المعركة بهجوم المشاه المسلمين في جيش مانفريد ضد المشاة الفرنسيين ، ثم بدأ الفرسان البروفنساليون يتدخلون في المعركة فكان رد الفعل السريع أن اقتحم الفرسان الالمان المعركة دون أن تصدر اليهم الأوامر بذلك ، مما دفع شارل أن يأمر بانزال الخط الثاني من قواته إلي ميدان المعركة ، ورغم ذلك فقد كان التفوق للفرسان الالمان وسيوفهم الطويلة ، الذين كانوا يرتدون دروعا صلبة لا تؤثر فيها خناجر الفرنسيين القصيرة (١) .

ولكن سرعان ما تدهور موقف مانفريد وجيشه وأصبح التفوق في جانب الجيش الفرنسي ، ذلك أن أحد الفرنسيين لاحظ أنه عندما يرفع الألمان أذرعهم ليهاجموا فان ابطهم تكون مكشوفة دون حماية لأن الدروع لا تغطي هذا الجزء ، فصاح في زملائه بان يطعنوهم في هذا المكان فاندفع الفرنسيون في جموع مترابطة حتي أصبحوا في وسط الألمان ، فشلوا فعالية سيوفهم الطويلة ، وأصبح التفوق لخناجر الفرنسيين القصيرة النافذة .

---

(١) عن أسلوب كل من الفرنسيين والألمان في القتال راجع :

Cinnamus : Historiurum , ed . Bonn , C. S. H. B. , PP. 84 - 85 .

ورغم ذلك كان لا يزال هناك فرصة لكي يكسب مانفريد المعركة اذا أسرع بدفع الخط الثاني من فرسانه إلي ميدان المعركة ، ولكن هذا الخط الذي كان يتكون من الفرسان اللومبارديين والتوسكانيين بقيادة خاله جلفانو لانسيا ، كان عليه أن يعبر الجسر الضيق المتهالك وهو الجسر الوحيد فوق نهر فولتورنو ، فتأخر وصولهم لذلك وحينما عبروا وصدرت اليهم الاوامر بالقتال جاء ذلك بعد فوات الأوان ، خاصة بعد أن أمر شارل بانزال الخط الثالث من جنوده ليحيطوا بقوات جلفانو لانسيا ، الذي بذل جهدا خارقا للصمود في المعركة دون طائل ، فقد أخذ جنوده في التساقط بين قتيل وجريح وأسير ، كما لاذ البعض منهم بالفرار ، أما مانفريد نفسه فقد كان يقف مع فرسانه من حزب الجبلين بعيد عن أرض المعركة بعض الشئ فلم يستطع التدخل لانقاذ الموقف في الوقت المناسب ، لكنه مع ذلك خلع عباءته الملكية واعطاها لصديقه تيبالدو تمويها للعدو ، وأصدر أوامره لخطه الأخير بالتحرك إلي أرض المعركة ، إلا أن نبلاءه من حزب الجبلين خانوه معتقدين بانه لا أمل في كسب المعركة وتركوه وانسحبوا دون قتال ، وكذلك فعل شقيقا زوجته ، وترك مانفريد وصديقه تيبالدو مع عدد قليل من اتباعه الذين ظلوا علي الولاء له ، وكان بمقدور مانفريد ان ينجو بنفسه ويهرب لكنه رفض الفرار بل اقتحم ميدان المعركة ، وظل يقاتل مع تيبالدو ومن بقي معهما من الجنود حتي سقطا قتيلين وسط الجنود وقتل تيبالدو وهو ما زال مرتديا عباءة مانفريد الملكية ، كما قتل معهما عدد من الأتباع وتمكن الباقون من الفرار . في الوقت الذي كلف فيه شارل نفر من رجاله بمهمة غير انسانية وهي قتل الجرحي من جيش مانفريد ، وهكذا في مساء يوم المعركة وهو الجمعة ٢٦ فبراير ١٢٦٦ ، كان شارل دانجو هو سيد الموقف ، وفتحت امامه أبواب المملكة ، وسار حتي دخل مدينة بنفنتو ، ومن هناك أرسل رسالة إلي البابا كليمنت الرابع يصف له فيها انتصاره ، كما أخبره أن مصير مانفريد غير معلوم ، ولكن بما أنه عثر علي جواده

فالارجح أنه قتل (١) .

وفي يوم الأحد ٢٨ فبراير ١٢٦٦ ، جاء إلي معسكر شارل أحد الجنود يقود دابة فوقها جثة ، وأخذ الجندي يصيح " من يشتري مانفريد " ، فجاؤا به أمام شارل، الذي طلب من بعض اسراه ، مثل ريتشارد كونت كاسرتا وهو شقيق زوجة مانفريد ، وجيوردانو وبارثولوميو لانسيا ، أن يتحققوا من أنها جثة مانفريد بالفعل . فتعرفوا عليها ، وتوسل بعض الفرسان الفرنسين ، الذين احترموا شجاعة مانفريد في القتال ، إلي شارل أن يأمر بأن تقام لمانفريد جنازة تليق به كجندي شجاع لقي حتفه في المعركة رغم أنه كان يستطيع الفرار دون قتال ، فأجابهم شارل بانه كان يود ذلك ، لولا ان مانفريد لقي حتفه وهو محروم من رحمة الكنيسة ، لكنه أمر بأن يدفن بصورة لائقه ، دون القيام بأية مراسم دينية ، ودفن جسده في حفرة أسفل جسر نهر فولتورنو ، ومر الجنود الفرنسيون أمامه لتحيته ، وكان كل جندي يمر أمامه يضع حجرا فوقه حتي تكون نصب (٢) .

(١) عن كل ما يتعلق بمعركة بنفنتو راجع المصادر التالية :

Villani : Cronica , vol II , PP. 147 - 155 .

Malaspina : Historia Sicula, PP. 825 - 830

Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire U. S. A. , vol III , P. 590.

Oman : Op. cit , PP. 500 - 505 .

Wolff : The Latin Empire of Constantinople , ch. v , PP. 65 - 67 , P. 78 .

(٢) لقد أشار دانتي الليجيري (١٢٦٥ – ١٣٢١م) ، في المطهر Purgatorio إلي قبر مانفريد راجع :

Dante Alighieri : Opcra , ed . Moore and Toynbeé , Fourth ed. Oxford , 1924 Purgatorio , III , PP. 124 - 132 .

وظل شارل لبعض الوقت في مدينة بنفنتو حتي استعاد جيشه نشاطه وحيويته ، علي الرغم من أن المدينة تعرضت للنهب من جانب الجنود ، ولم يشفع لها أنها كانت ضمن ممتلكات البابوية ، ولا تخضع للتاج الملكي ، واستدعي شارل زوجته الملكة بياتريس من روما فلحقت به ، ودخلا في احتفال مهيب مدينة نابلي التي اتخذها شارل عاصمة لملكته ، وكان ذلك في السابع من مارس ١٢٦٦ م. وقد امتطي الملك شارل صهوة جواده . أما الملكة بياتريس فكانت تجلس في محفه من القطيفة الزرقاء (١) .

وهكذا سقط مانفريد هوهنستاوفن ضحية للغدر والخيانة من جانب الحزب الملكي ، وهو حزب الجبلين ، وانتهي معه مجد هذا الحزب ، الذي كان الهوهنستاوفن يحكمون ايطاليا عن طريقه ، وأصبح اعضاؤه تحت سلطة وسيطرة شارل دانجو ، ليكفروا عن خيانتهم وتقلبهم ، ولم يلبثوا أن أدركوا مدي الخطأ الذي وقعوا فيه بخيانتهم لمانفريد بعد أن قاسوا ذل الاحتلال الفرنسي .

وكانت زوجة مانفريد هيلين اوف ابيروس وابنتها منه الطفلة بياتريس ، وثلاثة ابناء ذكور غير شرعيين لمانفريد يقيمون جميعا في لوسيرا Lucera بين المسلمين الذين كان يثق فيهم مانفريد ، فجاءهم نبأ كارثة بنفنتو ومقتل مانفريد هناك، فسارع الجميع بالذهاب إلي قلعة تراني Trani ، بأمل أن يجدوا زورقا يعبرون به البحر الادرياتي إلي والد هيلين في ابيروس ، ولما علم موظفو البابا بذلك طاردوهم ، وتعرضوا لخيانة قائد القلعة الذي سلمهم إلي موظفي البابا فنقلت هي وأطفالها إلي نوسيرا Nocera وسجنت في قلعة باركو Castella dell Parco وتوفيت هناك في عام ١٢٧١م. وهي لم تتعد الثلاثين من عمرها ، وقد تحررت ابنتها بياتريس في

(١) لقد قدم المؤرخ المعاصر فيلاني وصفا لموكب دخول شارل وبياتريس إلي نابولي راجع :
Villani : Cronica , PP. 155 - 156 .

عام ١٢٨٤ وتزوجت ماركيز سالوزو Marquis of Saluzzo . أما أبناء مانفريد الذكور فلم يغادروا سجنهم ابدا ، وظل أحدهم علي قيد الحياة حتي عام ١٣٠٩م. وسلم حاجب مانفريد ويدعي مانفريد ماليطا خزانته وثروته إلي الفاتح المنتصر شارل دانجو (١) .

وقد كان من نتيجة معركة بنفنتو وانتصار شارل ان فتحت له أبواب الصقليتين علي مصراعيها خاصة بعد أن بدأ شارل بداية طيبة واصدر عفوا عاما عن الناس مقتنعا بانه لا حاجة للانتقام من اتباع مانفريد وأصدقائه ، فشجع هذا العفو أولئك الذين تركوا وطنهم فعلا علي العودة إليه ، ومن بين هؤلاء طبيب بارز هو حنا بروسيدا Jhon of Procida ، الذي كان قد لازم الامبراطور فردريك الثاني أثناء مرضه الأخير والذي عرف عنه المهارة في علاج الأمراض الخطيرة والمستعصية فتشفع له البابا كليمنت بنفسه لدي شارل (٢) ، وسيكون لبروسيرا هذا دور بارز في الأحداث السياسية التالية في صقلية كما يتضح فيما بعد .

بدأت المدن الايطالية ترسل لشارل مدينة تلو الأخري تعلن خضوعها ، حتي قبل أن تصل اليها قواته ، ومن بين هذه المدن لوسيرا التي ظل المسلمون بها حتي النهاية مخلصين لمانفريد ، اما عائلة لانسيا ، وهي عائلة والدة مانفريد كما سبق أن ذكرنا ، فقد فكر بعض أفرادها في تنظيم المقاومة ضد شارل في الجنوب في اقليم كالابريا Calabria ولكنهم لم يلبثوا ان فتر حماسهم وتسرب اليأس إلي نفوسهم من امكانية نجاح مقاومتهم فاقسموا في النهاية لشارل يمين الولاء والتبعية، وترك لهم من جانبه معظم أراضيهم بداية لعهد جديد وعلاقة جديدة، ومن ثم عبرت قوات شارل واسطوله الذي كان بحارته من مارسيليا ، تحت قيادة فيليب أوف منتفورت Philip

(1) Del Giudice : La Familia del Re Manfredi , PP. 71 ff.

(2) Martine and Durand : Thesaurus novus Anecdotorum , Paris , 1717 , vol II , P. 319 .

of Montfort إلي صقلية ، فلم يبد سكان الجزيرة أية مقاومة ، كما استسلم أسطول مانفريد الذي كان لا يزال بكامل قوته واستعداداته إذ أنه لم يشترك في أية معارك بحرية ضد شارل (١) .

وفي نهاية مارس ١٢٦٦ ، عقد اجتماع كبير في مدينة ميلان حضره نواب شارل ونواب كل المدن الايطالية الكبيرة في حوض نهر البو Po ، من فيرسلي Vercelli في الغرب ، الي تريفيسو Treviso في الشرق ، ومن ريجيو Reggio وموبينا Modina جنوب نهر البو أيضا ، وأعلن الجميع ولاءهم للبابوية وانتماءهم لحزب الجلف ، وأعلن حاكم كريمونا Cremona ، وبياكنزا Piacenza وهو من حزب الجبلين ، في يونيو ١٢٦٦ م. خضوعه لشارل واضطر للانسحاب إلي ضياعه . وباستثناء مدينتي فيرونا Verona ، وبافايا Pavia ، اللتين ظلتا مستقلتين ، فان باقي اقليم لومبارديا في شمال ايطاليا أصبح في يد شارل وحليفه البابا (٢) .

وقد حدث نفس الشئ في توسكانيا Tuscany ، حيث كانت مدينة فلورنسا Florence مركز لحزب الجبلين وجري في خريف عام ١٢٦٦ ، اعادة تشكيل هذا الحزب بها واتخذ أعضاؤه رئيسا لهم هو جي نوفللو Guy Novello الذي دخل مدينة فلورنسا منتصرا ، لكن الأهالي طردوه بعد شهر واحد ، فاستدعي البابا شارل دانجو لاقرار الأمور في توسكانيا ، وفي ١٨ ابريل ١٢٦٦ دخل شارل فلورنسا ، فبادر أعضاء حزب الجبلين للانسحاب منها دون قتال ، ولم

(1) Jordan : L'Allemagne et l'Italie aux XII e et XIII e Siécles , dans Gloty , Histoire Générale , Histoire du Moyen Age , vol IV , Paris , 1909 , PP> 366 - 367.
Léonard : Les Angevins de Naples , P. 60 .

(2) Léonard : Op. cit , P. 372 .
Jordan : Op. cit , PP. 375 - 377 .
Previté - Orton : Italy , P. 187 .

يعودوا اليها بعد ذلك . وحذت مدينة لوقا Lucca حذو فلورنسا واختارت المدينتان شارل ليكون حاكما لهما لمدة سبع سنوات ، كذلك دانت له بالولاء كل من براتو Prato وبيستويا Pistoia ، إلي الشمال من فلورنسا ، ولم تقاومه سوي مدينتي بيزا Piza ، وسيينا Siena فأخذ شارل يستعد لسحقهما ، لكن البابا استدعاه لمقابلته في فيتربو Viterbo ، وهناك وعد شارل البابا أن يقصر حكمه في توسكانيا علي ثلاث سنوات فقط ، واضطر شارل إلي العودة إلي توسكانيا في نهاية يونيو ١٢٦٧ لمحاصرة الحصن المنيع بوجيبونسي Poggibonci ، الذي يقع إلي الشمال من سيينا ، واستمر الحصار لمدة خمسة شهور أبدت خلالها حامية الحصن مقاومة عنيفة ، واستمرت هذه المقاومة حتي ٣٠ نوفمبر ١٢٦٧ حين أخذه شارل عنوة. والجدير بالذكر أنه أثناء حصار شارل لهذا الحصن توفيت زوجته الملكة بياتريس في نوسيرا Nocera في يوليو ١٢٦٧ ولم تهنأ بلقبها كملكة سوي أقل من عام وحمل جسمانها إلي أكس Aix – احدي مدن بروفانس – حيث دفنت هناك (١) .

وهكذا بدا للوهلة الأولي وكأن أهداف البابوية قد تحققت تماما ، لدرجة أن البابا كليمنت كتب إلي نائبه في انجلترا في ٦ مايو ١٢٦٦ يقول : " إن السلام الذي يسود في جميع أنحاء المملكة إنما يرجع إلي قوة ابننا الحبيب شارل ، الذي يمتلك في قبضته رفات هذا الرجل الفاسق (يعني مانفريد) وزوجته وابنائه وثروته (٢) " .

لكن اثبتت الأحداث التالية ان البابا كان واهما إلي حد كبير ، وذلك يرجع إلي طموحات شارل دانجو التي كانت لا تقف عند حد ، ويؤكد ذلك العبارة التي قالها شارل بعد انتصاره في معركة بنفنتو ، حين جاءه أحد رجاله مهنئا له علي انتصاره

(1) Leonard : Op. cit , PP. 372 - 375 .

(2) Martine and Durand : Thesaurus nvus Anecdotorum , Paris , 1717 , vol II , P. 319 .

فرد عليه شارل قائلا : " علي أي شئ تهنئني ، ان الرجل الشجاع لا يكفيه العالم بأسره " (١) . وقد وضع شارل سياسة بحرية شاملة تشبه سياسة ملوك النورمان التي هدفت إلي غزو بلاد البلقان وامتلاك القسطنطينية ذاتها ، والسيطرة علي تجارة الشرق ، وتسد أيضا احتياجات شارل المالية الملحة ، فقد كان عليه أن يدفع أجور جنده ، ويسدد ديونه ، وأهمها الجزية السنوية الكبيرة التي كان عليه أن يدفعها للبابوية ، ومن ثم انتشر جباة الضرائب Collectae علي عجل لحصر المصادر المالية للبلاد والتأكد من انتظام دفع الضرائب التي كانت في حقيقة الأمر ثقيلة الوطأة علي الأهالي في الوقت الذي سيطر فيه أصحاب البنوك والتجار علي حركة التجارة التي كانت من قبل في ايدي الأهالي ، ولهذه الأسباب شعر الأهالي بالكراهية الشديدة تجاه شارل الذي كان يتصف بالقسوة والصرامة والاحتجاب عن الشعب ، إذ حكم شعبه بواسطة موظفيه الفرنسيين الذين نظر إليهم الأهالي علي أنهم غرباء من جهة ، ظالمون ومغرورون من جهة أخري ، وأخذ الأهالي يقارنون بين شارل وموظفيه ، وبين آل هوهنستاوفن الذين تمتعوا في ظلهم في صقلية وايطاليا ، بكثير من الرعاية ونعموا في عهدهم بكثير من المحبة والعطف واذا كانوا قد غضبوا علي ملوك هذه الأسرة بسبب جدالهم المستمر مع الكنيسة وخاصة فردريك الثاني ومن بعده ابنه مانفريد ، الا انهم عادوا فذكروهم بالخير بعد المقارنة بشارل دانجو الورع الممتلئ بالحيوية والنشاط (٢) .

ولم يمض وقت طويل حتي وصلت الشكاوي العديدة إلي البابا كليمنت الرابع ، الذي كان لديه من الأسباب ما جعله يغضب علي شارل ، فقد كان البابا يتمني أن يحكم مملكة الصقليتين بعد مانفريد عميل للبابوية موال لها يشعر بالامتنان والتبعية

(1) Previté - Orton · Italy , P. 187 .

(2) Trifone R. · La Legislazione Angioina , Naples , 1921 , P. 36 .
Previté - Orton Italy , PP. 186 - 187

للبابا ، إلا أن شارل رغم نصائح البابا المستمرة له لم يمتثل ، وأذهل البابا نهب جند شارل لمدينة بنفنتو التابعة للبابوية كما سبق ان ذكرنا ، وأدرك أن شارل يقسو علي الإيطاليين الذين خضعوا له ، وهو في نفس الوقت غير كريم في مكافآته لحلفائه المخلصين من رجال الكنيسة ، وأثار التعسف في جمع الضرائب بالذات قلق البابا ، رغم أن شارل أعفي رجال الدين من دفعها ، وكان من رأي البابا كليمنت أن يجمع شارل الاساقفة والبارونات والرجال البارزين في المملكة ، ويخبرهم باحتياجاته المالية ، ويتركهم بعد ذلك يقررون ما الذي يجب عليه اتباعه . وفي موجة الغضب التي اجتاحت البابا كليمنت ، راح ينتقد شارل من حيث ادارته لشئون المملكة ، ووصفه بانه متكبر وجاحد للنعم ، ودمية في يد موظفيه ، وأنه محاط بحاشية سيئة تتسم بالميل للفوضي ، وفي النهاية أوضح البابا بأن " لا أحد يري شارل أو يسمعه ، لأنه غير متواضع وغير محبوب من الشعب " (١) .

وهكذا فقد كان لدي البابا من الأسباب ما يبرر غضبه علي شارل ، ولهذا أخذ البابا يلح علي شارل أن يتنازل عن منصب سناتور روما ، استنادا إلي المعاهدة التي ابرمت بين الطرفين في يوليو ١٢٦٣ م. والتي حرمت علي شارل تقلد أي منصب في ايطاليا ، فاستجاب له شارل وفي يونيو ١٢٦٧ تم تعيين سناتور لروما ، هو الدون هنري القشتالي Don Henry of Castile وهو الأخ الأصغر للملك ألفونسو العاشر ملك قشتاله (١٢٥٢ - ١٢٨٤م) ، وكا ن مغامرا ثريا ينتمي إلي الطبقة الأرستقراطية ، ومن أشد المؤيدين لشارل (٢) ، وبمجرد أن تولي منصبه ، أظهر عداءه وكراهيته للبابا ولشارل ولحزب الجلف ، وانتهي به الأمر إلي الانضمام لحزب الجبلين المؤيد للهوهنستاوفن ، بل وحارب جنبا إلي جنب مع كونرادين ضد شارل

(1) Böchmer J. : Regesta Imperii , ed . Ficker and winkelmann , innsbruck 1881 - 1901 , vol V , PP. 1484 , 1488 , 1490 , 1493 .
(2) Previté - Orton : Italy , P. 187 .

والبابا علي حد سواء ، كما نري فيما بعد .

وعلي الرغم من غضب البابا علي شارل وانتقاد تصرفاته علنا ، الا ان الاحداث التالية أجبرته علي التمسك بشارل ، كما أجبرته علي أن يغفر له كل تصرف أغضبه منه ، وأصبح البابا يتوق لعودة شارل إلي جنوب ايطاليا . بسبب ظهور خطر جسيم هدد البابا وشارل وايطاليا كلها شمالاً وجنوباً وصقلية في آن واحد ، وتمثل هذا الخطر في شخص كونرادين الوريث الشرعي للهوهنستاوفن ، الذي خرج في حملة عسكرية من ألمانيا متجها إلي ايطاليا لاسترداد حقه المغتصب في عرش الصقليتين .

كان كونرادين في ذلك الوقت في الخامسة عشرة من عمره وكان مقيما في بافاريا حيث أملاك عائلة والدته كما سبق أن ذكرنا ، وكان شقيقا والدته وهما لويس وهنري Henry of Bavaria يعنيان بمصالحه السياسية في أقليم سوابيا Swabia ، الذي ظل ملكا لعائلة الهوهنستاوفن في المانيا ، واتسم كونرادين بالذكاء والنضوج المبكر ، كما كان طموحا جسورا وسيما ، ولديه احساس عميق بجذوره الملكية ، علي أن والدته لم تشجع طموحاته ، خوفا علي حياته من مغامرات غير مضمونة النتائج ، لكن ابن عمه وصديقه المقرب اليه والمتقارب معه في السن وهو فردريك اوف بادن Fredrick of Baden ، الوريث الشرعي لدوقية النمسا (التي آلت اليه عن طريق والدته) . كان مؤيدا ومساندا له في كل خططه (١) .

وقد سبق ان نوقش موضوع حقوق كونرادين في الصقليتين وكان رأي

(1) Hampe K. : Geschicchte Konradins Von Hohenstaufan , innsbruck , 1894 , PP. 21 - 41 .

وعن فردريك اوف بادن راجع نفس المرجع ، ص ١٧٦ .

البابوية أن كونرادين رغم أنه ينافس عمه مانفريد إلا أن كلاهما من عائلة الهوهنستاوفن البغيضة التي اختصتها البابوي بالكراهية واللعنات، اما ملك فرنسا لويس التاسع فقد كان من رأيه أن حقوق كونرادين لا يجب أن يتم تجاهلها تماما ، أما انصار الهوهنستاوفن في ايطاليا من حزب الجبلين فقد بدأوا يتجهون بتفكيرهم نحو كونرادين ، بعد معركة بنفنتو وقتل مانفريد وبعد ما عانوه من الحكم الفرنسي ، وقد فر بعضهم كما فر نفر من عائلة لانسيا ، إلي كونرادين في بافاريا ، ، وقاموا بتحريضه علي الانتقام لمقتل عمه مانفريد والمطالبة بحقه في عرش الصقليتين . وفي نفس الوقت عرضوا علي كونرادين خطة قوامها السير إلي توسكانيا ، علي أن يقوم كونراد كابيس Conrad Capece الذي كان نائبا لمانفريد في صقلية – وهو من حزب الجبلين الايطالي – بالهجوم علي صقلية مستخدما مساعدة أمير تونس (١) .

ومن ثم أرسل كونرادين رسائل إلي أنصاره في ايطاليا يستحثهم علي اعداد أنفسهم لمساندته ، وحينما اطمأن إلي وجود الكثير من هؤلاء الانصار ، حضر جلسة المجلس التشريعي في اوجسبرج Augsburg في اكتوبر ١٢٦٦ ، حيث أعلن كونرادين أنه ذاهب في حملة إلي ايطاليا للمطالبة بحقه الشرعي ، وطلب من أصدقائه ورعاياه المبادرة بمساعدته ، فوافق المجلس علي مطالب كونرادين وقرر ارسال الحملة إلي ايطاليا في صيف عام ١٢٦٧ م. من أجل استرداد حق كونرادين في عرش الصقليتين (٢) .

---

(1) Hampe Op. cit P 24
Previté Orton Italy , P 187
(2) Hampe Op. cit P 95 99

علم البابا كليمنت بقرار المعارضين إلي بافاريا وطموحات الأمير الصغير من عائلة الهوهنستاوفن واستعداداته لغزو ايطاليا ، فاصدر في ١٨ سبتمبر ١٢٦٦م قرار الحرمان ضد كل شخص يوافق علي اختيار كونرادين لعرش صقلية أو يعمل من أجل ذلك وعلي كل شخص يصحبه في حملته علي ايطاليا . وفي نوفمبر من نفس العام أصدر البابا مرسوما بقرار الحرمان واباحة الاستيلاء علي ممتلكات من يؤيد سيادة كونرادين علي صقلية أو يستقبل ممثلين عنه (١) .

وبناء علي أوامر كونرادين ، غادر كونراد كابيس تونس مع أنصاره الذين تجمعوا هناك ، بعد أن أمدهم أمير تونس المسلم بالأسلحة والذخائر ، فعادوا إلي صقلية حيث اشعلوا نيران الثورة بها ضد حكم شارل دانجو ، وأصبحت صقلية كلها في يد الثوار فيما عدا مدينتي بالرمو ومسينا اللتين ظلتا تحت سيطرة نائب شارل ، كذلك فان مسلمي لوسيرا اشعلوا الثورة التي اتسعت لتشمل كالابريا ، غير أن شارل كان ما يزال في توسكانيا ، وما لبث حصن Poggibonsi أن سقط في يديه في نهاية نوفمبر ١٢٦٧م كما استولي علي فولتيرا Volterra ليعزل سيينا Siena ، وفي يناير ١٢٦٨م اتجه ضد بيزا Piza واستولي عليها وأخرب ميناءها ، كما خرب اسوارها ، وقطع تجارتها البحرية فترة من الزمن . وفي مارس ١٢٦٨ استمع إلي نداءات البابا كليمنت وسار من فلورنسا جنوبا ، ليزور كليمنت في مقره في فيتربو ، وتسلم منه مرسوما أصبح شارل بمقتضاه نائباً امبراطورياً للمبارديا ، وفي طريق عودته إلي مملكته اتخذ اجراءات ضد المسلمين الثائرين في لوسيرا ، وحاول جاهدا اخضاعهم قبل قدوم كونرادين ، ولكن جهوده ذهبت هباء ولم يفلح في اجبارهم

(1) Hampe : Op. cit , P. 99 - 100 .

علي الاستسلام (١) .

وفي منتصف سبتمبر ١٢٦٧ ، غادر كونرادين بافاريا مصطحبا حوالي أربعة الاف فارس ألماني ، إذ لم يكن لديه المال الكافي لاستئجار عدد كبير من المرتزقة ، كما كان بصحبته الكثير من الايطاليين من حزب الجبلين المؤيد للهوهنستاوفن ، وكان بحاشيته الكثير من الصقليين ، وقبل ان يغادر ألمانيا اذاع بيانا رسميا ، أعلن فيه حقه الشرعي في ميراث الهوهنستاوفن ، كما أعلن أن مانفريد كان مغتصبا لحقه الشرعي في حكم الصقليتين (٢) .

تحرك جيش كونرادين ببطء عبر مقاطعة تيرول Tyrol في جنوب المانيا علي امتداد ممرات جبال الالب ، وفي ٢١ أكتوبر ١٢٦٧ وصل إلي فيرونا علي الساحل الشمالي الشرقي لايطاليا ، وأحد المراكز الهامة لتجمع حزب الجبلين ، وقد بقي بها كونرادين لمدة ثلاثة شهور ، ولم توضح المصادر السبب في بقاء كونرادين كل هذه المدة في فيرونا ، وربما أراد أن يعطي فسحة من الوقت لاعضاء حزب الجبلين في ايطاليا للانضمام إليه ، أو أنه كان يأمل أن تدفع ثورة صقلية ومسلمي لوسيرا شارل لكي يترك توسكانيا ويتجه جنوبا ، وبذلك تتاح لكونرادين فرصة الاستيلاء علي ايطاليا مدينة تلو الأخري ، لكن شارل خيب ظنه ولم تفلح ثورة صقلية ولا نداءات البابا في حثه علي ترك توسكانيا (٣) .

وقد أضر هذا التأخير في فيرونا بكونرادين أكثر مما أفاده ، ذلك أن أهالي

(1) Jordan : Op. cit , PP 386 - 390 .
Leonard : Op. cit , PP. 65 - 66 .
Hampe : Op. cit , PP. 189 - 195 .
(2) Hampe : Op. cit , PP. 346 - 350 .
(3) Malaspina : Op. cit , PP. 834 - 836 .
Jordan : Op. cit , P. 386 - 386

فيرونا لم يتوقعوا أن يستضيفوا جيشا بهذا الحجم لوقت طويل ، ولم يكن لديهم من المؤن والأغذية ما يقدمونه لهذا الجيش الكبير لمدة أخري ، في الوقت الذي بدأت فيه قواته تشعر بالضجر والملل ، كما أن دوق بافاريا رفض أن يصحب كونرادين لأبعد من ذلك وعاد إلي وطنه في المانيا ، وحذا حذوه الكثير من اللوردات الألمان الأقل منه مرتبة ، وبدأ صبر حزب الجبلين في فيرونا ينفد ، فاضطر كونرادين للتحرك ومغادرة فيرونا في ١٧ يناير ١٢٦٨ ، وبعد ثلاثة أيام وصل إلي المركز الثاني لتجمع الجبليين في ايطاليا وهو مدينة بافايا Pavaia ، في وسط لمبارديا ، ومكث بها عدة أسابيع ، ثم وصل إلي سافونا Savona علي الساحل الشمالي الغربي لايطاليا ، ومن هناك أبحر في زورق إلي بيزا التي وصلها في ٧ أبريل ١٢٦٨ ، وهناك استقبل استقبالا ملكيا حافلا ، أما جيشه فقد واصل السير عبر الطريق البري تحت قيادة فردريك اوف بادن حتي وصلوا إلي بيزا دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، وفي بيزا قدم الجبلينيون لكونرادين الكثير من الجنود والكثير من الأموال ، ومن جانبه منح كونرادين بيزا كل الحقوق التي كانت لها فيما سبق في مملكة الصقليتين ، فمنحها مدن تراباني Trapani في الشمال الغربي لصقلية ، ، مارسالا Marsala وسالرنو Salerno في الجنوب الغربي لايطاليا ، وجزيرة مالطا .

وأثناء ذلك كان شارل دانجو يحاول قمع الثورات المحلية التي قامت ضد حكمه في ايطاليا قبل أن يصل اليها كونرادين فترك اقليم توسكانيا واتجه إلي لوسيرا لاخماد ثورة المسلمين بها ضده ، فأتاح ذلك لكونرادين فرصة ليقوم بفتوحاته في توسكانيا ، فحاول الهجوم علي لوقا Lucca ولكن نائب شارل في توسكانيا تصدي له ، فسار كونرادين علي رأس جيشه إلي حصن بوججيبونسي Poggibonsi وهو الحصن الذي ذاق الأمرين من حصار شارل دانجو مدة خمسة شهور والذي أخذه شارل عنوة ، كما سبقت الاشارة ، فكان من الطبيعي أن يشعر

سكان هذا الحصن بالكراهية الشديدة لشارل ويستقبلوا كونرادين استقبالا حافلا حيث قدموا له مفتاح الحصن ، وفي ٢٥ يونيو ١٢٦٨ وصل كونرادين إلي سيينا Siena ويقي بها لمدة عشرة أيام ، وكافأ المدينة علي ولائها بمنحها الحق في جباية الضرائب واقرار العدالة في كل أنحاء المنطقة ، ومنها اتجه كونرادين بجيشه متخذا الطريق القديم المسمي طريق كاسيا Via Cassia عازما علي التوجه إلي روما ذاتها . وأثناء سيرهم ، مروا تحت أسوار مدينة فيتربو Viterbo ، شمال روما حيث مقر البابا كليمنت ، الذي شاهدهم من نافذة علوية في قصره أثناء عبورهم فراوده الأمل في أن يكون الحمل سائرا إلي المذبحة (١) .

وفي يوليو ١٢٦٨ ، وصل كونرادين إلي روما ، وسجل كاتب الحوليات المعاصر سابا ملاسبينا Saba Malaspina ، الذي كان يعمل في البلاط البابوي ، وصفا تفصيليا لاستقبال أهالي روما لكونرادين ، هذا الاستقبال الحافل ، الذي لم يسبق لمدينة بابوية أن استقبلت به عدوا للكنيسة ، فقد خرجت الجموع وعلي رأسها سناتور روما هنري القشتالي ، الذي كان قد قلب ظهر المجن للبابا ولحزب الجلف وانضم إلي حزب الجبلين ، خرج الجميع لاستقباله وهم ينشدون تراتيل تمدحه وتمجد عائلته وتلقي بالزهور أمامه في حماس منقطع النظير، وزينت الطرقات بالزينات ، وارتدي الجميع الملابس الزاهية الجميلة وكأنهم في يوم عيد ، وأقيمت الألعاب في ساحة مارتيوس Martius ، وسارت المواكب تتقدمها الأضواء ليلا ، واستمرت هذه الاحتفالات وتوافد أعضاء حزب الجبلين الايطاليين علي روما للاشتراك في هذه الاحتفالات ، كما أخذ السناتور هنري القشتالي ، يؤكد لكونرادين اخلاصه

(١) لقد. أعطي المؤرخ الالماني هامب وصفا تفصيليا لخط سير حملة كونرادين علي ايطاليا ، راجع:

Hampe · Geschichte Konradins Von Hohenstaufan , PP 21 - 41

الذي لن يتغير (١) .

وان دلت هذه الاحتفالات علي شئ فانما تدل علي مدي حب وتقدير الشعب الايطالي لعائلة الهوهنستاوفن ، وتمسكهم بها ، خاصة بعد أن ذاقوا مرارة حكم الفرنسيين وتعاليهم وغطرستهم ، وقد وصلت انباء هذا الاستقبال الحافل لكونرادين بروما ، إلي البابا كليمنت في مقره في فيتربو ، فتألم لذلك أشد الألم ولم يغفر البابا أو خلفاؤه لروما هذا الموقف لسنوات طويلة ، وأنحي باللائمة علي هنري القشتالي ، وأقسم البابا ألا يسمح مرة أخري ، باختيار أجنبي سناتور لروما .

وظل كونرادين بروما مدة ثلاثة أسابيع ، ثم غادرها وهو مفعم بالأمل في فتح مدن المملكة واسترداد ميراثه من مغتصبيه خاصة بعد هذا الاستقبال الرائع بروما ، الذي أثلج صدره ، وبعد أن انضم إلي جيشه نحو ألفين من الفرسان المدربين ، وبذلك بلغ تعداد جيشه ما يقرب من الستة آلاف مقاتل .

عزم كونرادين علي التوجه إلي اقليم أبوليا ، في الجنوب الشرقي لايطاليا ، حيث كانت أملاك مؤيديه من عائلة لانسيا وحين علم شارل بذلك وهو محاصر لمدينة لوسيرا حيث كانت ثورة المسلمين لا تزال قائمة ، رفع شارل الحصار وصمم علي أن يقطع الطريق علي كونرادين ، فسار بجيشه حتي وصل إلي تل أوفيندولي Ovindoli ، وكان هذا التل هو الطريق الوحيد الموصل إلي أبوليا ، ولم يكن بمقدور كونرادين أن يصل إلي أبوليا دون أن يمر عبر هذا التل ، لذلك غير كونرادين اتجاهه بعض الشئ حتي لا يصطدم بقوات شارل ووصل إلي كارسولي carsoli ثم اتخذ طريق فاليريا Via Valeria إلي الجنوب الشرقي ، وعبر إلي تاجليا كوزو Tagliacozzo وكان كونرادين يعلم أن شارل ليس بعيدا عنه ، لذلك لم يعطه

(1) Malaspina S. : Historia Sicula , PP. 842 - 844 .

الفرصة ليفاجئه في وادي ضيق ، بل تحرك شمالا مارا بالتلال ثم نزل إلي السهول حيث تستطيع قواته أن تخوض معركة حاسمة وهي في وضع مناسب يسمح للخيالة الثقيلة من الألمان ان تناور بسهولة وتتحرك في يسر لتحرز نتائج طيبة ، وأقام كونرادين معسكره عند سكوركولا Scurcola ، علي الجانب الغربي لنهر صغير يسمي سالتو Salto ، علي بعد خمسة أميال من تاجليا كوزو ، وكان ذلك في ٢٢ أغسطس ١٢٦٨م. ، وبعد ساعات قليلة وصل شارل دانجو علي رأس جيشه وعسكروا علي الجانب الشرقي لنهر سالتو وبدأت المعركة التي عرفت في التاريخ باسم معركة تاجلياكوزو Tagliacozzo ، في صباح يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٢٦٨ ، ومثل معركة بنفنتو من قبل ، كان كل جيش ينقسم إلي ثلاثة أقسام ، والفيالق الأولي من جيش كونرادين كانت تقف علي الشاطئ الغربي لنهر سالتو يقودها هنري القشتالي سناتور روما ، وقوامها الفرسان الإسبان، وقوات من حزب الجبلين من روما وكمبانا Campagna ، وخلفهم وقفت الفيالق من حزب الجبلين من لمبارديا وتوسكانيا ومن الفارين من مملكة شارل دانجو، وكان بينهم عدد قليل من الفرسان الالمان نوي الاسلحة الثقيلة . اما باقي القوات الالمانية فقد وضعت في الفيالق الاحتياطية تحت قيادة كونرادين وابن عمه وصديقه فردريك اوف بادن .

أما جيش شارل دانجو فقد كان أقل عددا حيث وصل تعداده إلي نحو خمسة آلاف فارس ، ولكنه كان يتكون من جنود محنكين حاربوا باستمرار مع شارل خلال العامين الاخيرين ، وكانوا من الرجال الذين يعرفهم شارل ويثق بهم ، وتكون الخط الأول من فيالقه من الايطاليين من حزب الجلف والقوات البروفنساليه ، وانتشر هؤلاء علي الجانب الشرقي لنهر سالتو ، أما الخط الثاني فكان يتكون من العدد الأكبر من قوات شارل الفرنسية تحت قيادة الماريشال هنري اوف كوسانسز Henry of Counsances ولجأ شارل إلي خداع كونرادين وقواته ، فاعطي للماريشال هنري

عباءته ليرتديها وسلمه العلم الملكي ليحمله حامل العلم الذي يقف عادة بالقرب من القائد . ونظرا لأنه جرت العادة علي أن قائد الجيش لابد وأن يكون علي رأس الفيالق الاحتياطية ، فقد اعتقد كونرادين أن تلك هي الفيالق الاحتياطية وقائدها شارل نفسه . في الوقت الذي كان فيه الاحتياطي الحقيقي بقيادة شارل ويبلغ تعداده حوالي الألف من أفضل الفرسان علي بعد حوالي الميل خلف جيشهم يختبئون من العدو وراء أحد التلال ، وكان يصحب شارل جندي مخضرم عاد لتوه من حملة صليبية في الشرق ، ويشغل منصب الحاجب الملكي في فرنسا ، وهو ايرار اوف سانت فاليري Erar of Saint - Valéry .

وهكذا كان يفصل بين الجيشين نهر سالتو الصغير الذي كان ضحلا في فصل الصيف ، وفوقه جسر يصل بين شاطئيه . وفي صباح يوم الخميس ٢٣ أغسطس ١٢٦٨ تحركت فيالق هنري القشتالي نحو الجسر بينما كانت فيالق شارل قد عبرت الجسر ووقفت في انتظارهم هناك وبدأت المعركة واشتعل القتال بين الطرفين ، وبدا التفوق في جانب جيش كونرادين وتساقطت الفيالق الانجوية وتعرضوا لمذابح رهيبه ، واعتقد الألمان أن هنري اوف كونسانز هو الملك شارل فهاجموه وذبحوه واستولوا علي العلم الملكي ، وحين رأي الفرسان الانجويين ذلك لاذوا بالفرار ، فاقتفي أثرهم هنري القشتالي ومعه جلفانو لانسيا ، وحين جاء كونرادين وفرسانه من الاحتياطي لتوجيه الضربة القاضية للجيس الأنجوي ، بدا ذلك غير ضروري ، نظرا لعدم وجود جنود تابعين لجيش شارل في ساحة المعركة ، إذ كان شارل دانجو مروعا في مخبئه خلف التلال ، وهو يري هذه الكارثة التي حلت برجاله .

علي أن الخطأ الذي ارتكبه جنود كونرادين وتسبب في هزيمته بعد ذلك ، هو انشغالهم في نهب المعسكر الانجوي واشترك في ذلك الجنود الايطاليون والألمان علي

السواء معتقدين ان جيش شارل قد هزم ولاذ بالفرار وخلا الجو لهم للاستيلاء علي ما يحويه المعسكر من المؤن والذخائر ، ولم يدر بخلدهم ان شارل ما زال مختبئا خلف التلال بفيالقة الاحتياطية التي لم تخض المعركة بعد ، وقد أخذ ايرار اوف سانت فاليري يحث شارل ويشجعه علي النزول إلي أرض المعركة للاشتباك مع كونرادين والفرسان القليلين الملتفين حوله بعد أن شغل باقي الجيش في مطاردة فيالق شارل الهاربة من ناحية وفي نهب معسكره من ناحية أخري فما لبث كونرادين وفردريك اوف بادن أن فوجئا بهجوم فيالق شارل ، وبعد صراع عنيف وقتال مرير ، اضطر كونرادين إلي ترك أرض المعركة والفرار استجابة لنصيحة قادته ، ففر هو وفردريك أوف بادن وحارسه الخاص واتخذوا طريقهم إلي روما ، اما باقي الفرسان من جيش كونرادين الذين ظلوا يقاتلون شارل وجنوده ، فقد ذبحوا واستولي شارل علي راية الهوهنستاوفن التي يزينها النسر ، ولما رأي الجنود الالمان والايطاليون الذين ينهبون المعسكر ذلك لاذوا بالفرار ، اما هنري القشتالي وجلفانو لانسيا فقد ظلا يطاردان جنود شارل الهاربين حتي أصبحوا خارج الوادي ووصلوا إلي طريق ابوليا ، فجاءتهما الانباء هناك بما حدث لجيش كونرادين ، فعادا إلي أرض المعركة علي رأس فيالقهما وكانت لا تزال أكثر عددا من فيالق شارل ، غير أنها كانت تعاني من الاجهاد بعد يوم طويل من القتال والمطاردة ، وهم يرتدون الدروع الثقيلة ويقاسون من حرارة الصيف ، علي عكس فيالق شارل التي ادخرت قوتها طوال اليوم ولم تنزل إلي أرض المعركة الا مؤخرا فضلا عن أنها كانت ترتدي دروعا مرنه وخفيفة فتقاتل الفريقان يدا بيد وانتهي القتال بفوز شارل فوزا تاما [1] .

(١) عن كل ما يتعلق بتفاصيل معركة تاجليا كوزو راجع ما يلي :

Villani : Cronica , vol II , PP. 181 - 189 .
Malaspina : Historia Sicula , vol III , PP. 845 - 848
Hampe : OP. cit , PP. 288 - 295 .
Miller : The Latins in the levant , PP. 128 - 129
Oman : Op. cit , vol I , PP. 505 - 515

وكعادة شارل دانجو بعد كل معركة ، كتب إلي البابا كليمنت ووصف له المعركة ومدي الجهد الكبير الذي بذله هو ورجاله في هذ المعركة ، واختتم رسالته إليه قائلا :

" لقد قتلنا من الاعداء في هذه المعركة أكثر مما قتلنا منهم في معركة بنفنتو ، ونحن نكتب لك هذه الرسالة بعد المعركة مباشرة ، ولا نستطيع ان نؤكد الآن ما اذا كان كونرادين والسناتور هنري قد قتلا أم انهما لاذا بالفرار ، لكن المؤكد ان فرس السناتور هنري قد جري أخذه فلابد هنري نفسه قد فر علي قدميه " (١) .

والواقع ان معظم قادة جيش كونرادين كانوا لا يزالون علي قيد الحياة ، بينما قبض علي السناتور هنري القشتالي أثناء فراره ، وظل بالأسر لسنوات طويلة، ثم أفرج عنه في ١٢٩٣ ، في عهد شارل الثاني اوف انجو ، فعاد إلي وطنه في أسبانيا (٢) .

أما كونرادين وابن عمه وصديقه الوفي فردريك اوف بادن فقد اتخذا طريقهما إلي روما ، وكان بعض الفرسان قد انضموا اليهما فوصل عددهم إلي نحو خمسين فارساً ، وفي ٢٨ أغسطس وصلوا إلي روما ، وفيها نائب السناتور هنري ويدعي جي مونتفلترو Guy of Montefelro وهو لورد اربينو Lord Urbino وينتمي إلي حزب الجبلين وكان قد سمع بتفاصيل المعركة وما انتهت اليه من هزيمة كونرادين ، لذلك انقلب علي كونرادين ، وحزب الجبلين بكامله ، وانضم إلي الحزب المنافس والموالي للبابوية وهو حزب الجلف وسمح لرجاله بدخول روما ، في الوقت الذي رفض دخول كونرادين ورجاله وأغلق بوابات الكابيتول في وجههم ، فرأي

(1) Villani : Op. cit , vol II , PP. 190 .
Malaspina : Op. cit , vol III , P. 849 .

(2) Wolff : Mortgage and Redemption of an Emperor , Son : Castile and the Latin Empire of Constantinaple , in Studies in the Latin Empire of Constantinaple , London 1976 , Ch. V, P. 78 .

كونرادين انه من الأفضل عدم دخول روما ، فاتخذ ورجاله طريق فاليريا Via Valeria ، سائرين خلال الجبال ، وعند ساراسينيسكو Saracinesco التقوا بجلفانو لانسيا الذي انضم اليهم ، فعزم الجميع علي التوجه إلي ابوليا والانضمام للثوار هناك وعائلة لانسيا ، ويبدوان شارل توقع منهم ذلك ، فوضع عددا من رجاله يراقبون الطريق إلي الشرق ، وحين ادرك كونرادين وصحبه ذلك غيروا خططهم واتجهوا ج ، مارين بكمبانا Campagna فوصلوا إلي ميناء صغير في استيوار Astura في مستنقعات بونتين Pontine marshes بأمل أن يجدوا زورقا ينقلهم إلي جنوا ، لكن الحاكم المحلي للمنطقة وهو اللورد حنا فرانجيبيان Jhon Frangipan ما أن علم أن ثمة غرباء غير معروفين قد نزلوا بالمنطقة حتي أرسل من قبض عليهم واحضرهم ، فاكتشف شخصياتهم فقام بسجنهم في قلعة من قلاعه ، وبعد أيام قليلة علم شارل بذلك فأرسل أمير البحر روبرت اوف لافينا Robert of Lavena ومعه الكاردينال جوردان اوف تراسّينا Jordan of Terracina فطلبا من حنا فرانجيبان باسم الملك شارل والبابا كليمنت ان يسلمهما السجناء ، فاستجاب لهما ، ونقل السجناء أولا إلي بالسترينا Palestrina ، وهناك تم العفو عن جلفانو لانسيا وأحد ابنائه وعدد من النبلاء الايطاليين من حزب الجبلين ، والارجح ان شارل عفي عنهم حتي يكسب ود عائلة لانسيا في ابوليا لتكف عن اثارة المتاعب في وجهه والتحريض علي الثورة ضده ، ونفس الشئ بالنسبة لحزب الجبلين ، اما كونرادين وفردريك اوف بادن وعدد من اتباعهما فقد نقلوا إلي نابلي ومنها إلي قلعة في جزيرة اوفو Castello dell'Uovo [١] .

(1) Malaspina Historia Sicula , vol III , PP. 848 - 850 .

وكان شارل دانجو مقتنعا تماما بان كونرادين يجب أن يقتل ، لانه لا يمكن ان يشعر بالأمان علي عرشه ، طالما ان هناك أمير من الهوهنستاوفن علي قيد الحياة لكن شارل كان يريد أن يكون حكمه علي كونرادين قانونيا ، فالتقاليد كانت تحرم قتل أسير الحرب ، وخاصة من الشخصيات البارزة والأمراء ، فاذا خالف شارل هذه التقاليد فيجب أن يكون لديه المبرر القانوني لذلك ، فأمر المحامين باعداد عريضة الاتهام ضد كونرادين ، وأيقن قضاة شارل المطلوب منهم ، وبعد محاكمة صورية هزلية في نابولي صدر حكمهم بان كونرادين مذنب بتهمتي التمرد والخيانة ، وكذلك فردريك اوف بادن وريث عرش النمسا ، الذي كانت كل جريمته أنه ظل مخلصا لكونرادين حتي النهاية ، ولابد ان شارل اعتقد أنه اذا ظل فردريك اوف بادن علي قيد الحياة وقتل كونرادين فقط ، فمن المحتمل ان يطالب فردريك بعد ذلك بحقه الشرعي في عرش الصقليتين حيث أنه ابن عم كونرادين أي من نفس عائلة الهوهنستاوفن.

ونصبت مقصلة في معسكر ماريسينو Campo Maricino في نابولي في الموقع الذي يعرف حاليا باسم بيازا دل ماركاتو Piazza del Marcato ، وفي ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م. جري قطع رأس كل من كونرادين وفردريك اوف بادن مع عدد من اتباعهما ، وهي المرة الأولي التي رأي فيها أهالي نابولي هذا الصبي الوسيم ذي الستة عشر ربيعا ، والذي كان من الممكن أن يكون ملكا عليهم ويقال أنهم لم ينسوه ابدا ولمدة طويلة (٢) .

ولكن ما هو موقف البابا كليمنت الرابع من هذه المحاكمة ، ومن قتل كونرادين علي هذا النحو؟

(1) Malaspina : Op. cit , PP. 848 - 850 .
(2) Hampe : Op. cit , PP. 305 - 306 , P. 314 .

يقول بعض المؤرخين ، ان البابا التزم الصمت ازاء هذه الحوادث ، وان صمته هذا كان اعترافا ضمنيا بالموافقة [1] . غير أن المؤرخ المعاصر جيوفاني فيلاني حاول جاهدا ان يبعد عن البابا تهمة الاشتراك في قتل كونرادين ،وأوضح ان البابا شعر بالأسي العميق لمقتله [2] . لكن يجب أن ندخل في اعتبارنا ان المؤرخ فيلاني كان ينتمي إلي حزب الجلف الموالي للبابوية ، ومن الطبيعي أن يحاول نفي هذه التهمة البشعة عن البابا ، الأب الروحي للمسيحيين في كل أنحاء العالم المسيحي. علي أنه هناك مقولة شهيرة قالها البابا كليمنت ، تنفي رأي فيلاني وتؤكد أنه كان للبابا كليمنت دور في حث شارل علي التخلص من كونرادين بالقتل ، وهذه المقولة هي:

" Vita Conradini , mors Caroli : Vita Caroli , mors Conradini"[3] .

أي أن حياة كونرادين تعني موت شارل ، وحياة شارل تعني موت كونرادين .

ولاشك في ان البابا اختار حياة شارل ، التي تعني موت كونرادين ، وكان قتل كونرادين وفردريك اوف بادن من الأمور التي يحبذها البابا حتي يتخلص وبصفة نهائية من خطر تدخل الهوهنستاوفن في ايطاليا وهم الأعداء الالداء للبابوية.

وقد أصيب الرأي العام في اوروبا بالصدمة لمقتل كونرادين وفردريك اوف بادن علي هذا النحو ، وتعددت الآراء في ذلك خاصة الاطراف الثلاثة الذين شغلهم هذا الأمر : الايطاليون والفرنسيون والالمان ، اما عن الايطاليين فقد كتب العالم الانساني الكبير المعاصر دانتي الليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١م) ان كونرادين يعتبر

(1) Previté - Orton : Italy , P. 189 .
(2) Villani : Op. cit , vol II , PP. 848 - 850 .
(3) Malaspina · Op. cit , PP. 848 - 850 .

ضحية بريئة (١) . أما عن المؤرخين الفرنسيين فانهم اعتبروا شارل دانجو مذنبا ، وتمنوا أن يجدوا عذرا واحدا لتبرئته من هذه الجريمة التي تتنافي مع الانسانية والتقاليد المعروفة آنذاك (٢) .

أما بالنسبة للمؤرخين الالمان ، فقد اعتبروا قتل كونرادين من أبشع الجرائم التي عرفها التاريخ (٣) . وكتب الشاعر الالماني هنريخ هين (٤) Heinrich Heine (١٧٩٧ – ١٨٥٦ م.) عن هذه الحادثة ، واتصفت كتابته عنها بالحزن والمرارة . كذلك فان الغالبية من المؤرخين المحدثين من الجنسيات المختلفة قد أدانوا شارل دانجو

(1) Dante Alighieri : Opera , Purgatorio III , P. 150 .

(2) Jordan : L'Allemagne et L'Italy , P. 392 .
Leonard : Les Angevins de Naples , P. 380 .

(3) Hampe : Geschichte Konradins Von Hohenstawfen , PP. 312 - 327 , 358 - 365 .

(٤) يعتبر هين من أعظم الكتاب والشعراء الالمان في القرن التاسع عشر ، ولد في ١٣ ديسمبر ١٧٩٧ وتوفي في ١٧ فبراير ١٨٥٦ وهو يهودي الأصل ، ولما كان والده لم يصادف نجاحا في اعماله ، لذلك فقد امده خاله الذي كان يمتلك ثروة ضخمة ويعيش في هامبورج Hamburg، بحاجته من الاموال ، فدرس هين القانون في بون Bonn لكنه لم يمارس المحاماة أو يعمل في أي مجال من مجالات القانون . لان الشعر والأدب استحوذا علي إهتمامه وأخذ يتنقل بين صالونات الشعر ، وعن طريق خاله تعرف علي البارون الشهير روتشيلد Baron Rothschild وكان هين يعشق الثقافة الفرنسية ، كما كان يؤيد سياسة نابليون بونابرت حتي انتقل للاقامة في باريس منذ سنة ١٨٣١ . ولهين أعمال عديدة منها ديوان شعر عرف باسم (كتاب الأغاني) Book of Songs الذي ظهر في عام ١٨٢٧ وترجم إلي اللغة الانجليزية عام ١٨٤٦ ، ورحلة هارز Harzreise ، وصدر سنة ١٨٢٦ ، وحمامات لوقا Bader Von Lucca ، الذي ظهر في ثلاثة أجزاء ، عن هين وأعماله راجع :

Vntermeyer L. : Heinrich Heine , Paradox and Poet the life , 1937 .
Rose w. : Heinrich Heine : two Studies of his thought and Feeling , 1956 .
Prawer S. : Heine , The Tragic Stirist , A study of Later Poetry 1827 - 1856, (1961)

وتعاطفوا بشدة مع كونرادين (١) ووصف المؤرخ روبرت لي وولف Robert Lee Wolff قتل كونرادين بانه " واحدة من أكثر الاحداث خطورة ومأساوية للمرحلة الاخيرة من الصراع علي الممتلكات الايطالية للامبراطورية الرومانية المقدسة (٢) " .

ولاشك في ان قتل شارل دانجو لكونرادين علي هذا النحو ، كان جريمة بشعة بكل المقاييس ، لكن شارل دانجو اعتقد ان الغاية تبرر الوسيلة ، وانه بموت كونرادين وفردريك اوف بادن ، يصبح بمقدوره ان يحكم وهو مطمئن تماما إلي انتهاء سلالة الهوهنستاوفن إلي الأبد ، اذ لم يبق منهم من ينازعه علي عرش الصقليتين ، لكنه كان واهما إلي أبعد الحدود ، لان الضربة القاضية التي أصابته في مقتل ، وقضت علي آماله وطموحاته العريضة في الغزو والفتح وتكوين امبراطورية شاسعة انما اتت اليه من أحد فروع الهوهنستاوفن .

وكان من نتيجة الانتصار الذي احرزه شارل دانجو علي الهوهنستاوفن ان الثوار الذين رفعوا راية العصيان ضد شارل وتمردوا عليه ووجدوا في كونرادين الأمل والخلاص من الاحتلال الفرنسي قد بدأوا في التراجع " خوفا علي رؤوسهم وممتلكاتهم " علي حد تعبير المؤرخ الانجليزي الكبير ادوار جيبون (٣) . فاستسلمت

(١) راجع علي سبيل المثال المراجع التالية :

- Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire , Vol III , New York , P. 591 .
- Previté - Orton : Italy , 1250 - 1290 , in C. Med . H. vol VI , ed. Tanner , P. 189 .
- Austine . Lane Poole : The Interrengnum in Germany , in C. Med . H. viol VI, ed. Tanner , P. 124 .
- Hoyt and Chodorow : Europe in The Middle Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 , P. 487

(2) Wolff : Op. cit , ch. V , P. 79

(3) Gibbon · Op. cit . vol III , P 591

مدينة لوسيرا Lucera في ٢٧ أغسطس ١٢٦٩م. ، وأجبر بيزا علي الاستسلام في سنة ١٢٧٠م كما اعلنت سيينا Siena خضوعها واصبحت من حزب الجلف وطردت الجبلينيين منها ، ومد حدوده في لومبارديا باخضاع تورين Turin والساندريا Alessandria في ١٢٧٠ ، وانتهت ثورة صقلية بالقبض علي كونراد كابيس واعدامه في يوليو ١٢٧٠م. (١) ورغم ذلك فقد استمرت الثورات ضد حكم شارل علي فترات متقطعة في كل عام ، وان كان يسارع باخمادها الا انها كانت مؤشرا لسوء حكمه للصقليتين بعد ان أغرق البلاد في الدماء وصادر ممتلكات الثوار وخاصة النبلاء ، وأخذ في توزيعها علي نبلائه الفرنسيين ، وتوقف شارل عن الاجتماع مع مجلس النواب Parlement ، ولم يستجب لطلبات انعقاده ، كما أخذ في فرض الضرائب الباهظة علي الاهالي حتي فاقت حدود احتمالهم (٢) . فكان لكل ذلك نتائج خطيرة ، إذ عبأت الشعور الوطني لشعب الصقليتين ضد شارل والفرنسيين علي وجه العموم، وتسببت في الانفجار الثوري الرهيب في صقلية في ٢٩ مارس ١٢٨٢ ، الذي اطاح بحكم شارل دانجو فيها ، وقضي علي آماله وخططه من أجل تكوين امبراطورية تشمل بلاد الغرب والشرق علي حد سواء .

(1) Previté - Oton : Italy , PP. 189 - 190 .
(2) Previté - Oton : Italy , P. 189 .

شارل دانجو والثورة الصقلية

تعرف الثورة الصقلية التي قامت ضد شارل دانجو في يوم الاثنين ٢٩ مارس ١٢٨٢م. ، في مدينة بالرمو ، وانتقلت منها إلي باقي أنحاء الجزيرة باسم (صلاة المساء الصقلية) The Sicilian Vespers [١] وقد اختلفت آراء المؤرخين حول الأسباب التي أدت إلي هذه الثورة ، فالمؤرخ الايطالي المعاصر جيوفاني فيلاني أرجع أسباب هذه الثورة إلي الدور الذي قام به حنا بروسيدا [٢] ، في تحريض شعب صقلية علي الثورة ، وقد أضفي علي بروسيدا هالة كبيرة جعلته أشبه بالاسطورة [٣] . والغالب ان العالم الانساني الكبير فرانسيسكو بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤م.) قد تأثر برأي فيلاني عن اسباب هذه الثورة ، وأسندإلي بروسيدا الدور الرئيسي والهام فيها واعتبره المحرك الأول لهذه الثورة [٤] .

وقد أخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين منهم جيبون [٥] Gibbon ولمبروزو-Lum-

(١) إتخذ اسم Vespers من التعبير اللاتيني للساعات الأخيرة من ضوء النهار (evening) وقد بدأ المسيحيون يؤدون هذه الصلاة منذ القرن الثالث الميلادي ، وكانت عبارة عن صلاة وترتيل لتمجيد المسيح واحياء ذكري العشاء الأخير ، ثم تطورت حتي أخذت شكلها النهائي في القرن السادس الميلادي ، وأصبحت تتضمن : مقدمة موجزة ، خمس ترنيمات ، قراءة قصيرة من الانجيل ، ترتيل ، تمجيد الرب ، صلاة الأغراض المختلفة ، عظة دينية ، وأخيرا آيات ختامية ، راجع :

The illustrated Encyclopedia of Medieval civilization U. S. A. 1980 , P. 695 .

(٢) يوجد بحث قيم للمؤرخ رانسيمان عن حنا بروسيدا ، نشأته ، دراسته ، ودوره في الحياة السياسية في عصره ، راجع :

Runciman : John of Procida and the Vespers , in his Book : The Sicilian Vespers, Cambridge , 1988 , PP. 288 - 293 .

(3) Villani : Cronica , vol I , P. 390 .

(4) Petrarca F : Itinerarium Syriacum , in Opera omnia , Basil , 1554 , P. 559 .

(5) Gibbon E. : The Decline and Fall of the Roman Empire , U. S. A. vol I , PP. 236 - 237 .

brozo [1] ، واستروجورسكي Ostrogorsky [2] .

علي ان المؤرخ الايطالي الشهير ميشيل أماري Michel Amari قام بعمل دراسة رائعة لهذه الثورة في كتابه عن (حرب صلاة المساء الصقلية) La Guerra del Vespro Siciliano الذي نشره باللغة الإيطالية عند بداية العقد الخامس من القرن التاسع عشر الميلادي في عام ١٨٤٢م. ، وظهر في ثلاثة أجزاء ، واعتمد أماري في هذه الدراسة علي مجموعة من المصادر التي كانت موجودة في عصره ويصعب الحصول عليها الآن . ثم قام أماري بعمل تغيير وتصويب في الطبعات الأخيره من هذا الكتاب ، وقد اعتمدنا علي الطبعة التاسعة التي نشرت في ميلان في عام ١٨٨٦م.

وفيما يتعلق بثورة صقلية هذه ، فقد أوضح أماري ان هناك أسبابا عديدة لهذه الثورة ، وأن دور حنا بروسيدا كان دورا ثانويا محدودا ، وان الأسباب الحقيقية للثورة تتعلق بشعب صقلية وما عاناه من ظلم وجبروت المحتلين الفرنسيين [3] . وأخذ بهذا الرأي عدد من المؤرخين من بينهم فيروزوسكي [4] Wieruszouski ، وفازيلييف [5] Vasiliev ، وجياناكوبولس [6] Geanakoplos ، وسيرستيفن رانسيمان [7] Runciman في كتابه القيم عن

(1) Lumbrozo G. : Memorie Italiane del byon lempo antico , turin , 1889 , P. 34.

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State , P. 464 .

(3) Amari : La Guerra del Vespro Siciliano , 9 th ed. Milan , 1886 , vol I , PP. 193 - 301 .

(4) Wieruszouski H. : " Conjuraciones yabanzas Politics del rey pedro de Arag'on Contra Carlos de Anjou antes de la Lisperas Sicilianas " in Boletin de la A Cademia de la Historia , 107 , Madrid , 1935 , PP> 560 - 563 .

(5) Vasiliev : Op. cit , vol II , P. 598 .

(6) Geanakoplos : Op. cit , P. 355 .

(7) Runciman : The Sicilian Vespers , Cambridge , 1988 , PP. 210 - 213 .

(صلاة المساء الصقلية) ، The Sicilian Vespers ، الذي نشر في كمبردج لأول مرة في عام ١٩٥٨ ، ثم اعيد نشره في أعوام ١٩٨٢ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٨ ، وهي الطبعة الاخيرة التي اعتمدنا عليها .

ولا شك في أن رأي أماري هو الأرجح ، لأنه لا يمكن لشخص ما ، مهما كانت قوة تأثيره علي الرأي العام ، ان يحرك شعبا باكمله للقيام بالثورة ، ما لم يكن لدي هذا الشعب من الاسباب ما يدفعه للثورة . والغالب ان فيلاني نسب لحنا بروسيدا هذا الدور الاسطوري كمحرك أساسي ورئيسي للثورة نظرا لان فيلاني ، كما سبق ان ذكرنا ، كان ينتمي إلي حزب الجلف الموالي للبابوية وشارل ، وليس من المنطق في شئ ان يلقي باللوم علي شارل وسياسته في صقلية ، تلك السياسة التي أثارت شعور الكراهية لدي شعب هذه الجزيرة ضد شارل والمحتلين الفرنسيين ، وأشعلت نيران هذه الثورة .

وقد كانت ثورة شعب صقلية ضد شارل أثناء حربه مع كونرادين قد دفعته لعدم الثقة فيهم ، ومن ثم اتخذ نابولي عاصمة له وعزف عن بالرمو التي اتخذها الهوهنستاوفن ومن قبلهم النورمان عاصمة ، وهكذا فقدت الجزيرة مركزها كمحور اهتمام الحاكم ولم تلق الا الاهمال من جانب شارل ، فلم يبذل جهوداً للنهوض باقتصادها ، بل انه لم يقم بزيارة الجزيرة الا مرة واحدة فقط وهو في طريقه للحاق بشقيقه الملك لويس التاسع في تونس (١) ، كما أنه لم يتول الاشراف بنفسه علي جهازها الاداري ، وانما ترك ذلك لنائبه بها ويدعي هربرت اوف اورليان Herbert of Orléans الذي اعتمد علي مجموعة من الموظفين الفرنسيين عاثوا فيها فساداً وعرف عنهم الجشع والرشوة وابتزاز الاهالي ومعاملتهم بمنتهي القسوة والعجرفة والتعالي ، ولم يحترموا تقاليدهم أو لغتهم ، حتي القضاء كان في يد قضاة

(1) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 211 .

فرنسيين علي رأسهم حنا اوف سان ريمي John of Saint - Rémy ، كذلك عاني أهالي الجزيرة من كثرة الضرائب التي فرضها عليهم شارل من أجل تمويل مشروعاته الخاصة بالغزو والفتح ، فادركوا في النهاية أنهم خضعوا لطاغية أجنبي يبتزهم من أجل تحقيق أهداف لن يستفيدوا هم منها شيئا ، وأشار إلي ذلك كله المؤرخ الصقلي المعاصر بارثولوميو اوف نيوكاسترو Bartholomew of Neocastro (١) .

يضاف لهذه الأسباب ، تحريض كل من ميخائيل باليولوجوس وبطرس الثالث لأهالي صقلية . أما عن ميخائيل باليولوجوس فهو امبراطور الامبراطورية البيزنطية (١٢٦١ - ١٢٨٢م) ، الذي قام شارل دانجو بتجميع قوي الغرب الأوروبي ضده من أجل القضاء عليه واسترداد الامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، فكان من الطبيعي أن يحاول ميخائيل إثارة المتاعب في وجه شارل حتي لا يحقق أهدافه الخاصة بغزو القسطنطينية لانتزاعها منه . لذلك أخذ في تحريض شعب صقلية ضد حكم شارل واغدق الأموال علي المناهضين له وتم تهريب الأسلحة اليهم . واما بطرس الثالث ملك أرغونة (١٢٧٦ - ١٢٨٥ م) فهو زوج كونستانس هوهنستاوفن ابنة مانفريد والوريثة الشرعية للملك والدها في صقلية ، وكانت هي وزوجها يعتبران شارل دانجو مغتصبا لحقها في ملك أبيها .كما فر إلي بلاط بطرس لاجئون سياسيون من صقلية يدينون بالولاء للهوهنستاوفن لعل

(١) يعرف أيضا باسم بارثولوميو اوف مسينا Messina ، حيث أنه ولد بها ، اما كلمة نيوكاسترو فالمقصود بها صقلية ، وقد درس القانون وعمل قاضيا في مسينا ، وفي عام ١٢٨٢م ، وبعد القضاء علي حكم شارل دانجو في صقلية عن طريق الثورة التي قام بها أهاليها ، اختير بواسطة الأهالي لحكمها ، وقد كتب مذكرات تاريخية دوّن فيها تاريخ صقلية في الماضي وحتي عصره واطلق عليها اسم (التاريخ الصقلي) Historia Sicula ، وقد نشره ميوراتوري Muratori في الجزء الثالث عشر من موسوعته ، راجع :

Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , ed Muratori in (Rerum Italiacarum Scriptores) , vol XIII , P. 10 .

أشهرهم حنا بروسيدا John of Procida الذي سبقت الاشارة اليه فحاز ثقة بطرس واتخذه مستشارا وسكرتيرا له لذلك أخذ بطرس يقوم باستعدادات عسكرية وبدأ في انشاء اسطول قوي ، ودأب علي تغذية المكائد والفتن ضد شارل وهكذا عاد الهوهنستاوفن يطلون من جديد علي صقلية ، وينازعون شارل علي حكمها ويطالبون بحقهم الشرعي في عرشها

وكان أن التقي اعداء شارل دانجو ، إذ عقد تحالف بين بطرس الثالث وميخائيل باليولوجوس أواخر عام ١٢٨١م من أجل انتزاع صقلية من شارل وتعهد ميخائيل بدفع مبلغ من المال لبطرس حتي نهاية الحرب ضد شارل [١]

وأدي ذلك كله إلي غليان الموقف في صقلية وأنذر بانفجار الموقف حتي كان يوم عيد الفصح الموافق الاثنين ٢٩ مارس ١٢٨٢م. حين حدث الانفجار بالقرب من كنيسة الروح المقدسة Santo Spirito ، التي تبعد حوالي نصف ميل فقط شمال شرق الأسوار القديمة لمدينة بالرمو

وهذه الكنيسة كان قد بناها في عام ١١٧٧م. والتر اوفاميل Walter Ophamil ، وهو انجليزي المولد وكان يشغل منصب رئيس اساقفة بالرمو ، وكان من عادة رجال الدين في هذه الكنيسة ان يقيموا مهرجانا في يوم عيد الفصح من كل عام ، ولهذا فقد تدفقت جموع المواطنين الصقليين من بالرمو والقري المجاورة ، إلي هذه الكنيسة وتجمعوا حولها انتظارا لموعد صلاة المساء [٢] Vespers وبينما الأهالي يغنون ويرقصون احتفالا بهذا العيد ، ظهرت فجأة مجموعة من الموظفين الفرنسيين والفرسان المدججين بالسلاح وكانوا جميعا في حالة سكر بيّن

(1) Ptolemy of Lucca Historia Ecclesiastica vol XI 1727 Cols 1186 1187

Sanudo Istoria F 133

(2) Runciman Op cit PP [illegible]

فاستقبلهم الأهالي بفتور ونظرات الاستنكار والكراهية ولكنهم أصروا علي المشاركة في الاحتفال ، وكان من بينهم ضابط فرنسي يدعي درويه Drouet اعجبته سيدة متزوجة شابة من أهالي صقلية ، أخذ في مضايقتها بتصرفات وكلمات غير لائقة ، بأكثر مما يحتمل زوجها ، فاستل هذا سكينا وطعن به الضابط الفرنسي فأرداه قتيلا ، فاندفع الفرنسيون يهاجمون الأهالي انتقاما لزميلهم ، ولكنهم وجدوا أنفسهم محاصرين تماما بحشد غاضب من الصقليين المسلحين بالخناجر والسيوف الذين ما لبثوا أن أجهزوا عليهم ولم يتركوا فرنسيا واحدا منهم علي قيد الحياة ، في نفس اللحظة التي انطلقت فيها أجراس كنيسة الروح المقدسة، وباقي الكنائس تدق معلنة حلول وقت صلاة المساء Vespers فأسرع بعض الأهالي يذرعون شوارع بالرمو يحرضون الرجال لقتل الفرنسيين الظالمين ، وانطلقت صيحات الغضب تهز أنحاء المدينة تنادي (الموت للفرنسيين) moranu li Franchiski وأخذوا في مهاجمة بيوت الفرنسيين الموجودين في بالرمو حتي اجهزوا عليهم جميعا سواء كانوا رجالا أم نساء أم أطفالاً وحتي السيدات الصقليات اللاتي تزوجن من فرنسيين قتلن جميعا في هذه الأحداث وانتقلت الثورة إلي أديرة الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان وخرج الجميع يشاركون في هذه الثورة ضد المحتلين الفرنسيين [١] .

وفي اليوم التالي لهذه الثورة كان عدد القتلي من الفرنسيين في بالرمو وحدها حوالي الألفين [٢] . وأصبح الثوار يسيطرون تماما علي بالرمو ، واجتمع

(١) يوجد وصف تفصيلي لهذه المذبحة في المصادر التالية :

Bartholomew of Neocastro · Historia Sicula , PP. 11 - 12

Villani Cronica vol II PP 242 243

Amari La Guerra . vol I . PP 193 200

(٢) ذكر المؤرخ برفيته اورتون ان المحصلة النهائية لعدد القتلي لهذه الثوره في انحاء الجزيرة =

نخبة من الأهالي واعلنوا مدينة بالرمو قومونا مستقلا [١] ، واختاروا قائدا لهم فارسا يدعي روجر ماسترانجيلو Roger Mastrangelo ، وعين له ثلاثة من النواب هم هنري بافريو Henry Baverio ، نيقولا اوف اورتوليفا Nicolas of Ortoleva ، ونيقولا اوف ابدمونيا Nicolas of Ebdemonia ، كما عين خمسة مستشارين لمساعدتهم . وجري تنكيس العلم الانجوي الذي يحمل شارة زهرة السوسن ، واستبدل في كل مكان في المدينة بعلم الهوهنستاوفن الذي يحمل شارة النسر الامبراطوري . وكان فردريك الثاني قد اختاره ليكون شارة مميزة لمدينة بالرمو التي قضي بها طفولته ثم اتخذها عاصمة له ، ثم ارسلوا رسالة إلي البابا مارتن الرابع يسألونه فيها أن يصبغ حمايته علي هذا القومون الجديد ، ولم يكن البابا مارتن الرابع الحليف الوفي لشارل دانجو ليقبل ذلك فرفض رفضا باتا [٢] .

وسرعان ما انتشرت أنباء ثورة بالرمو هذه في أنحاء الجزيرة ، وخرجت الرسل

= كانت تتراوح ما بين ... ٣٠٠٠ - ... ٤٠٠ قتيل فرنسي ، راجع :

Previté - Orton : Italy , P. 198 .

(١) القومون هو المدينة التي ارتبطت عناصر سكانها في حلف وحصلوا علي استقلالهم عن طريق ثورة مسلحة ، وقد درج المؤرخون علي اطلاق هذا الاصطلاح علي المدن التي تمتعت بنفوذ سياسي مستقل ، بمعني أن أهلها يختارون حكامهم وموظفيهم بانفسهم دون ان يفرض عليهم ذلك من قبل سيدا أو حاكماً من خارج المدينة اما التزامات القومون نحو السلطة العليا في الدولة ، كالامبراطور أو الملك أو البابا ، فكانت تحدد بمبلغ معين من المال يدفع سنويا وقسط معلوم من الخدمة العسكرية . وللمزيد عن القومونات ونشأتها راجع :

سعيد عاشور : اوروبا العصور الوسطي ، الجزء الثاني ، النظم والحضارة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٢ ، القاهرة ، ص ص ١٠٥ - ١٠٧ .

Petit - Dutaillis : Les Communes Françaises au Moyen Ages , Paris , 1948 .

(2) Bartholomew : Op. cit , PP. 12 - 15 .

Villani : Cronica , vol II , PP. 245 - 246 .

Amari : La Guerra , vol I , PP. 228 - 231 .

من بالرمو إلي جميع مدن وقري صقلية لتحرضهم علي الثوره وكانت أول مدينة استجابت هي كورليون Corleone ، علي بعد عشرين ميلا جنوب بالرمو ، وبعد أن أجهزت علي الفرنسيين بها أعلنت نفسها أيضا قومونا مستقلا ، وفي ٣ أبريل ١٢٨٢م. ارسل قائدها ويدعي بونيفيس Bomıface ثلاثة رسل إلي بالرمو لاتخاذ خطوات مشتركة بين القومونين ، فأتفق القومونان علي ان يرسلا قواتهما في ثلاثة اتجاهات للتحريض علي الثورة ، غربا إلي ترابانى Trapanı وجنوبا إلي كالتانيسيتا Caltanissetta ، وشرقا نحو مسينا Messına ، وحينما كانت قوات الثوار تقترب كان الفرنسيون يفرون ، ومن لم يستطع الفرار كان نصيبه الذبح ، ونجحت قوات الثوار في تطهير المدينتين الأولتين من الفرنسيين ، أما مسينا فقد كان الموقف فيها مختلفا ، حيث كان الأسطول الانجوي يرابط في مينائها ، كما كان بها أيضا نائب شارل وهو هربرت اوف اورليان . الذي كانت تحميه حامية فرنسية قوية ، علي أن هربرت ارتكب خطأ كان له أكبر الأثر في انضمام مسينا إلي الثوار وذلك انه ارسل جيشا من قوات مسينا الصقلية بقيادة فارس صقلي هو وليم شيريولو William Chiriolo جنوبا إلي مدينة تورمينا Tormina لحمايتها من الثوار ، وفي نفس الوقت أرسل جزء من الأسطول ببحارته الصقليين وتحت قيادة أحد نبلاء مسينا ويدعي ريتشارد ريزو Richard Riso إلي بالرمو لمهاجمتها بحرا ، وكان المتوقع ان يرسل فرنسيين لقمع الثورة وليس الصقليين ولكنه لم ينتبه إلي هذا الخطأ ، فكانت النتيجة المتوقعة هي رفض البحارة ان يهاجموا اخوانهم أهالي بالرمو ، واستقر هذا الاسطول ببحارته وقائده في ميناء بالرمو وانضم للثوار بها . وحينما علم هربرت بذلك أرسل قوات فرنسية إلي تورمينا لتحل محل قوات مسينا بها ، ولكن وليم شيريولو قبض عليهم جميعا وهكذا أصبحت مسينا بغير قوات كافية ، فانتهزها الاهالي فرصه وأعلنوا الثورة علي شارل دانجو في يوم ٢٨ أبريل ١٢٨٢م وجرت بها مدبحة للفرنسيين مماثلة

المذبحة بالرمو ، كما أشعل الاهالي النار في باقي سفن الاسطول الانجوي المرابط أمامها ، وأعلنت نفسها قومونا كذلك ، واختارت قائدا لها هو بارثولوميو مانيسكالكو Bartholomew Maniscalco الذي لعب دورا هاما ورئيسيا لتنظيم الثورة بها [(١)] .

ورغم رفض البابا مارتن الاستجابة لرسل بالرمو والاعتراف بها قومونا وفرض حمايته عليها ، الا ان الاهالي لم ييأسوا خاصة بعد أن انضمت مسينا إلي بالرمو وباقي مدن صقلية وارسلوا في أول مايو ١٢٨٢م. ثلاثة رسل إلي بلاط البابا في اورفييتو Orvieto يسألونه الاعتراف بهم قومونات ، لكن البابا مارتن الرابع رفض ذلك بل أصدر في ٧ مايو ١٢٨٢م. مرسوما بتوقيع قرار الحرمان علي الثوار في صقلية كلها ، وعلي كل من يقدم لهم العون ، كما أصدر مرسوما ثانيا بتوقيع قرار الحرمان علي ميخائيل باليولوجوس (الذي يسمي نفسه امبراطور اليونان) . ومرسوما ثالثا بتوقيع قرار الحرمان علي حزب الجبلين في شمال ايطاليا [(٢)] .

وهكذا أثبت البابا مارتن الرابع مدي اخلاصه ووفائه لشارل دانجو ، كما أثبت أيضا تأكده التام من الدور الذي لعبه ميخائيل باليولوجوس في العمل علي اشعال نيران هذه الثورة للاطاحة بحكم شارل دانجو في صقلية ، والجدير بالذكر ، ان انباء هذه الثورة وصلت إلي ميخائيل باليولوجوس في القسطنطينية عن طريق أحد التجار الجنويه ويدعي الافرانكو كاسّانو Alafranco Cassano ، وسعد الامبراطور ميخائيل بهذه الانباء كثيرا بعد ان نزلت بشارل هذه النكبة ، ، وأرسل

(1) Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , PP. 12 - 15 .

(2) Bartholomew of Neocastro : Historia Sicula , PP. 15 .
Villani : Cronica , vol II , PP. 245 - 246 .
Amari : La Guerra , vol I , PP. 228 - 231 .
Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 220 - 221 .

للثوار في صقلية مزيدا من الذهب والأموال للاستعانة بها علي حرب شارل وأشار ميخائيل باليولوجوس في سيرته الذاتية التي كتبها إلي ابنه وولي عهده اندرونيقوس ، إلي دوره في العمل علي تحرير أهالي صقلية من حكم شارل فقال :

" لقد احتقر الصقليون قوات شارل كقوات تستحق الاحتقار وتجرأوا واستخدموا الأسلحة واطلقوا أنفسهم من عبوديته فاذا قلت ان الله الذي وهبهم الحرية، قد وهبهم إياها عن طريقنا ، فاني بذلك أقرر الحقيقة " (١) .

لكن ما هو موقف شارل دانجو من كل هذه الحوادث في صقلية ، وأين كان مقره حينما قامت الثورة الصقلية ؟

كان شارل في عاصمته (نابولي) حينذاك ، حين أرسل اليه رئيس اساقفة مونريال Monreale ، بالقرب من بالرمو ، يخبره بمذبحة بالرمو ، وغضب شارل لسماعه ذلك غير أنه لم يأخذ الأمر علي محمل الجد ولم يعطه ما يستحقه من الاهتمام ، معتقدا أن تلك الثورة مجرد تمرد كالذي كان يحدث في كل عام تقريبا وينجح شارل في القضاء عليه ، لذلك أعطي أوامره في ٨ أبريل ١٢٨٢م. ، لنائب الأدميرال ماثيو اوف سالرنو Matthew of Salerno ليأخذ أربع غاليات محملة بالمقاتلين ويذهب بها لقمع الثورة في بالرمو ، ففشل ماثيو في هذه المهمة بل نجح ثوار مسينا في الاستيلاء علي غاليتين من غالياته الأربع عند عودته من بالرمو وعاد بالغاليتين الباقيتين إلي نابولي (٢) .

وحين علم شارل باندلاع الثورة في مسينا أيضا بدأ يأخذ الأمر بجدية أكثر فجمع اساطيله من الموانئ الايطالية ، وطلب المساعدة من فيليب الثالث ملك فرنسا

(1) Michael Palaeologus De Vita Sua Opusculum , ed. Troitsky , vol II , PP. 537 538

(2) Bartholomew of Neocastro Op cit .P 11 12

(١٢٧٠ - ١٢٨٥م.) وابن شقيقه . علي أن فيليب كان يري ان الخطر الأعظم علي شارل لا يكمن في صقلية وانما في أرغونة حيث كان ملكها بطرس الثالث قد اعد اسطولا عظيما أمام ميناء فانجوس Fanggos عند منبع نهر ابرو Ebro فأرسل اليه فيليب رسالة في ٢٠ مايو ١٢٨٢ م. طلب فيها ان يعده بطرس ان هذا الاسطول لن يهاجم عمه شارل دانجو فإذا لم يفعل فليأذن بعداء بينهما وسيضطر فيليب لارسال جيش لمحاربة أرغونة [١] .

ولما كان بطرس الثالث لا يرغب في فتح جبهة قتال مع ملك فرنسا قد تعوقه عن تنفيذ اهدافه في صقلية ، فقد أكد علي أن هذا الأسطول أعد خصيصا لمهاجمة شمال أفريقية ، في نفس الوقت طلب من البابا مارتن منح بعض الامتيازات الروحية للمشتركين في هذه الحملة واعتبارها حملة صليبية ، ولكن البابا رفض رفضا باتا[٢] . فخرج الملك بطرس باسطوله من ميناء فانجوس في ٣ يونيو ١٢٨٢م. ونزل علي الساحل الجزائري ، وقاتل البربر بعض الوقت ، وكان ذلك كله تمويها علي فيليب ملك فرنسا وشارل دانجو ، واستقر بطرس في ميناء كولو Collo ، انتظار لما يسفر عنه الوضع في صقلية [٣] .

أخذ الصقليون يعدون أنفسهم للهجوم المنتظر من جانب شارل ، وما لبث أن قام شارل بالهجوم علي مسينا فعلا في ٨ أغسطس ١٢٨٢م. ، ولكن هجومه فشل، فعاود هجومه المرة تلو الأخري ولكن الاهالي قاوموه بشجاعة وتصميم علي

(1) Champollion - Figlac : Letters des Rois , Reines et autres Personnages des cours de France et d'Angleterre . Collection de Documents inedits , Paris , 1884 - 1897 , vol I P. 285 .

(2) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 222 .

(3) Runciman : The Sicilian Vespers , P. 222

النصر أو الموت في سبيل قضيتهم [١] .

ومع تربص شارل دانجو بأهالي صقلية ومدنها ، ومع رفض البابا مارتن الرابع إعلان حمايته علي هذه القومونات الجديدة ، كان لابد للاهالي أن يبحثوا عن قوة تتولي حمايتهم ومساندتهم ، وتمثلت هذه القوة في بطرس الثالث ملك أرغونة الذي كان ينتظر هذه الفرصة ، إذ لم يكن الاهالي راغبين في ان يتولي حكمهم غريب حتي لا تتكرر مأساتهم مع شارل دانجو الفرنسي ، وقد كانت زوجة بطرس الثالث هي كونستانس هوهنستاوفن وهي قبل كل شئ ممثلة لعائلة الهوهنستاوفن ووريثة هذه الأسرة ، لذلك تم الاتفاق فيما بين الاهالي علي ان تكون هي ملكتهم ، فأرسلوا ثلاثة رسل من بالرمو إلي بطرس الثالث للقائه وكان لا يزال معسكرا في ميناء كولو الجزائري فقدموا له فروض الطاعة والولاء واخبروه بأنهم اختاروا الملكة كونستانس كملكة شرعية لهم ، وانهم يقدمون لها تاج صقلية ومن بعدها يكون التاج من نصيب أبنائها ، ودعوه للمجئ إلي صقلية ، فاستجاب لهم بطرس ، وأعلن أنه ذاهب إلي صقلية بناء علي دعوة أهلها ، وأبحر إلي تراباني Trapani ، حيث نزل هناك علي رأس جيشه الذي تكون من ٦ من رجاله المسلحين ، و ..٨ من الالميوجافيري Almugaveri ، وهم من المشاة المدربين علي حرب العصابات ويمتازون بالشجاعة وشدة المراس في القتال وقد طبقت شهرتهم الآفاق [٢] ، واتخذ طريقه إلي بالرمو ، حيث توج ملكا علي صقلية في ٤ سبتمبر ١٢٨٢م. ومنح أهلها الحقوق والحرية التي كانت لهم زمن الملك وليم

(١) عن تفاصيل هجوم شارل علي مسينا ومقاومة الاهالي له راجع

Batholomew of Neocastro Hist Sic PP. 23 - 36 .

Amari La Guerra vol I P 232 ff

Leonardi les Angevins des Naples P 147

(2) Previte Orton Italy P 199

الثاني النورماني وقد انضم إلي جيشه محاربون من بالرمو وعرب صقلية واتخذوا طريقهم إلي مسينا حيث كان شارل يرابط باسطوله أمامها . وما أن علم شارل بوصول بطرس الثالث حتي انسحب باسطوله عائدا إلي كالابريا في جنوب ايطاليا .(١)

وراح يتباحث مع ابن شقيقه ملك فرنسا فيليب الثالث للبحث عن مخرج لهذه الازمة. وسارع البابا مارتن الرابع بالانضمام إلي شارل في هذا الصراع ، واصدر قرار الحرمان علي بطرس الثالث في نوفمبر ١٢٨٢م كما أعلن البابا في ١٣ يناير ١٢٨٣م. ، ان الحرب ضد بطرس الثالث وثوار صقلية وكل من يساعدهم تعتبر حربا صليبية ، ومنح كل من يحارب ضد هؤلاء الثوار نفس الامتيازات الروحية التي منحت من قبل لمن يحارب المسلمين في الاراضي المقدسة في فلسطين . ويبدو أن ذلك لم يكن كافيا في نظر شارل ، إذ قام بزيارة البابا في مقره في فيتربو Vitrbo ليحثه علي مضاعفة العقاب لبطرس الثالث وفي ٢١ مارس ١٢٨٣ غادر شارل فيتربو وبعد أيام قليلة ، أصدر البابا مارتن الرابع قرارا بعزل بطرس الثالث عن ملكه في اسبانيا معلنا ان هذا المُلك يجب أن يمنح لكاثوليكي تقي ، ومن ثم جري منحه لشارل اوف فالوا Charles of Valois وهو الابن الاصغر لفيليب الثالث ملك فرنسا (٢)

وقد اشترك البابا مارتن مع شارل دانجو وفيليب الثالث ملك فرنسا في التخطيط لفتح مملكة أرغونة ، وعلم بطرس الثالث باستعداداتهم لنقل الصراع إلي الأرض الاسبانية أي إلي أملاكه هناك ، لذلك كان عليه ان يغادر صقلية ليعود

(1) Batholomew Op cit PP 30 32
Runciman Op cit P 227 233
(2) Runciman Op cit P 242 243
Previte Orton Italy P 199

إلي وطنه لحماية ملكه هناك [1] . فارسل في ربيع عام ١٢٨٣م. إلي زوجته الملكة كونستانس للحضور إلي مسينا ، فوصلت اليها في ١٦ أبريل ١٢٨٣م. وبصحبتها أبنائها الأطفال جيمس James ، وفردريك Frederik ، وفيولنت Violante ، ومستشارها الوفي حنا بروسيدا ، وجري عقد البرلمان في مسينا في ١٩ أبريل ١٢٨٣ م. حيث أعلن بطرس أنه في حالة وفاته فان ابنه جيمس سوف يخلفه علي عرش صقلية ، وتكون الملكة كونستانس وصية علي ابنها في حكم صقلية مع مجلس وصاية يتكون من القاضي اليمو اوف لينتيني Alaimo of Lentini ، والمستشار حنا بروسيدا ، والادميرال روجر اوف لوريا Roger of Lauria . وفي اليوم التالي ترك بطرس الثالث زوجته كونستانس تحكم صقلية ، وغادر مسينا ليقوم بجولة في أنحاء صقلية ثم إلي ميناء تراباني وأخيرا أبحر في ٦ مايو ١٢٨٣ م. إلي فلنسية [2]. واضطر بطرس الثالث لخوض حرب شرسه عنيفة ضد فيليب الثالث ملك فرنسا وشارل دانجو ، اللذان حمّلاه نتيجة ما قام به في صقلية ضد شارل [3] .

وهكذا عادت كونستانس هوهنستاوفن ملكة في إرثها من أجدادها في صقلية ، وأثبتت الحوادث ان قتل شارل دانجو لمانفريد ثم كونرادين ، وحتي فردريك اوف بادن ، للخلاص من عائلة الهوهنستاوفن ووضع حد لمزاحمتهم إياه في صقلية، لم يحقق هدفه ، فما لبث أن برز خطر آخر من اسبانيا ومن نسل الهوهنستاوفن أيضا يتطلع لاسترداد ملك آبائه وأجداده .

(1) Runciman : Op. cit , P. 228 - 279 .

(2) Batholomew of Neocastro : Op. cit , PP. 47 - 51 .

(٣) عن الصراع الذي قام في اسبانيا بين القوي الثلاثة بطرس الثالث وفيليب الثالث وشارل دانجو راجع :

Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 228 - 293 .

وقد استأنف شارل دانجو الصراع في صقلية ولكن روجر لوريا قائد الاسطول الصقلي أثبت مقدرة وكفاءة عظيمة في هذه الظروف الصعبة ، إذ استطاع ان يحرز الانتصار في كل معاركه البحرية ضد قوات شارل ونجح في إنزال ضربة رائعة بشارل وحطم الجزء الأكبر من أسطوله عند مالطة في يوليو ١٢٨٣ م. ، بينما استمر البابا مارتن الرابع في مساندته لشارل ، وقدم الاموال والذهب الكثير في يديه من أجل الانفاق علي استعدادات الحرب واستخدم الاسلحة الروحية بقسوة في الحرب ضد أهل صقلية ، كما أعلن قرار الحرمان علي البندقية لرفضها تأجير سفنها لشارل[1] وشرع شارل في تعويض الخسارة التي لحقت به في السفن والتي انزلها به لوريا عند مالطة ، فقام باعداد نحو ثلاثين سفينة عند نابولي ، وعدد أخراً عند برنديزي ، وتجمعت هذه السفن عند اوستيكا Ustica ، حيث خرج شارل بنفسه علي رأس هذا الأسطول ، لكن الحوادث جرت في اتجاه آخر وجاءت علي غير ما يهوي ، ذلك ان شارل كان قد ترك ابنه وولي عهده ويدعي شارل الاعرج (أمير سالرنو) نائبا عنه في نابولي وامره بالاستعداد لجولة جديدة ، وعلي الرغم من أنه نفذ خطة الاستعداد بهمة ونشاط الا أنه ظل في مكانه في نابولي انتظارا لوصول والده علي رأس الاسطول ، وفي ٥ يونيو ١٢٨٤م. ، ظهر روجر لوريا بالاسطول الصقلي في خليج نابولي واستدرج شارل الاعرج للقتال فتسرع هذا واشتبك معه في قتال ، فانتهت المعركة بانتصار لوريا انتصارا حاسما وسقط العديد من نبلاء شارل قتلي وفر كثير منهم من ميدان القتال ، وعندما وصل شارل إلي قرب نابولي أدرك أن أي هجوم مباشر علي لوريا يعتبر أمرا مستحيلا ، خاصة وقد تفشت الفوضي وانتشر الشغب في نابولي فاشتد حنقه علي ابنه ونعته بالقسيس "الجبان، الغبي ، الذي يختار دائما الخيار الأسوأ " ، ولكنه لم يستطع ان يغير النتيجة خصوصا بعد ان فر معظم رجاله إلي ابوليا أخذ شارل يجمع الرجال من

(1) Previté Orton Italy P 199

جديد ويعد الاسطول ويغير ويبدل في خططه لعله يستطيع أن ينقذ ما يمكن انقاذه ويحتفظ علي الاقل بمملكة نابولي . ونتيجة لما بذله شارل من جهد ارهق كثيرا واصابته الحمي وظهر واضحا ان أيامه أصبحت معدودة ، وتوفي في النهاية في فوجيا Foggia في اقليم ابوليا في ٧ يناير ١٢٨٥ م. ، ونقل جثمانه إلي نابولي حيث دفن هناك (١) .

وهكذا سقط شارل دانجو ضحية لطموحه المفرط وغروره واعتزازه بعنصره الفرنسي ، ورغم أنه كان فارسا جريئا ، إلا انه فشل في تحقيق أحلامه العريضة في الغزو والفتح ، وفشل في حكم وقيادة ايطاليا كبطل من أبطال البابوية ، وكان فشله الاكبر في حكم صقلية .

واذا كانت البابوية قد اختارته ليكون بطلها والمدافع عنها ، إلا ان مشاريعها لم تتحقق وخططها لم تنجح تماما ، لان طموح شارل جعله يعمل لتحقيق مصالحه السياسية أولا ، ولم تكن صفاته الشخصية بالتي تسمح باستغلاله كدمية في يد البابوية تحركها كيفما ارادت ، بل ان الذي حدث هو ان البابوية هي التي أصبحت دميه في يده يحركها كيف يشاء وذلك علي عهد البابا مارتن الرابع . وهكذا فان كانت البابوية قد لجأت لشارل دانجو لكي يخلصها من خطر الهوهنستاوفن ، فان خطره هو عليها كان لا يقل بأي حال عن خطر الهوهنستاوفن .

والواقع ان سياسة شارل دانجو في صقلية كانت سياسة فاشلة تماما ، لانه لم يتجاوب مع الشعب الذي كان عليه أن يتعامل معه بل أن اعتداده بأصله الفرنسي ومكانة فرنسا في ذلك الوقت ، دفعه إلي اتخاذ سياستين مختلفتين ، واحدة تجاه العنصر الفرنسي ، والاخري تجاه العناصر غير الفرنسية ، التي نظر اليها باحتقار

(1) Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 254 - 255 .

Previté - Orton : Italy , P. 200 .

وتعالي . وهكذا أساء إلي صقلية وشعبها أبلغ اساءه وشهدت الجزيرة[1] حكمه من ٦ يناير ١٢٦٦ م. إلي ٢٩ مارس ١٢٨٢م تدهورا واضمحلالا سياسيا واقتصاديا لم تشهده من قبل ، ولم يكن الصقليون يقبلون ذلك بعد أن وصلوا إلي قمة الازدهار في عهودهم السابقة خاصة علي عهد الملك النورماني روجر الثاني (١١٣ ١١٥٤ م) الذي جعل من صقلية مركز ازدهار ورخاء وتمتعت في ظله بالرخاء الاقتصادي وشهدت عاصمته بالرمو تطورا هائلا في كل الميادين وأصبحت مركزا لصناعة الحرير ، وأطراها المعاصرون كثيرا وتحدثوا عن ثروتها التي بلغت ايراداتها في عام ١١٥٥م أكثر مما بلغته ايرادات جميع مملكة انجلترا وازدهرت أيضا الناحية الثقافية ، وغدت صقلية ملتقي الشرق والغرب ، حيث تم فيها ترجمة أعمال اليونان والمسلمين إلي اللغة اللاتينية واستحوذت الفنون أيضا علي اهتمام روجر الثاني وأصبحت علي درجة كبيرة من الرقي والازدهار ، اذ حوي قصره في بالرمو كنيسة صغيرة Chapel كانت آية في الفن والجمال لأنها بنيت بمزيج من الفنون المعمارية البيزنطية والاسلامية ، كما حازت نفس الشهرة الكاتدرائية التي بناها في مونريال Monreale بالقرب من بالرمو ، فضلا عما قام به روجر الثاني من تنظيمات سياسية وادارية عظيمة في الجزيرة حتي غدت من أقوي الدول في غرب أوروبا . وبقيت صقلية علي نفس المستوي من النمو والازدهار حتي نهاية حكم الامبراطور فردريك الثاني (١١٩٧ ١٢٥م.) ، الذي ولد وتربي في بالرمو ، وكان يعتبر نفسه ايطالياً أكثر منه ألمانياً ، والذي أحب صقلية أكثر من أي مكان آخر ، وكان يردد دائما وحتي آخر ايامه أنها المكان الوحيد الذي يشعر فيه أنه في بيته . وفي عهده شهدت الجزيره ازدهارا عظيما ، حتي عد عهده (العصر الذهبي) لصقلية . وأصبح بلاطه في بالرمو ملتقي العلماء المسلمين والمسيحيين . واليهود . والأكثر شهرة بين مراكز السياسه والثقافة في غرب أوروبا وقد شجع فردريك التجاره والصناعه وانشأ بالجزيره مدناً جديده كما أقر العدالة

---

[1] شارل ديل ...

بين رعاياه ، وكفل لهم السلام والرخاء (١) .

وحين آل حكم صقلية إلي شارل دانجو ، اختلفت الصورة تماما اذ لم يتخذ شارل بالرمو أو أية مدينة أخري من مدن صقلية عاصمة له ، بل اتخذ نابولي عاصمة له ، كما أنه لم يزر صقلية ، باستثناء مرة واحدة حين مر بها وهو في طريقه إلي شقيقه الملك لويس التاسع في تونس ، كما ذكرنا ، وترك حكم صقلية لنائب فرنسي يحكمها باسمه واعتمد علي موظفين فرنسيين اتصفوا بالفساد فتعسفوا مع الأهالي وأساءوا معاملتهم وتعالوا عليهم وأظهروا كثيرا من الغطرسة ، هذا بالاضافة للضرائب الباهظة التي فرضها عليهم من أجل تمويل خططه ومشاريعه الرامية إلي الفتح والغزو ، وهكذا تعددت أخطاء شارل التي لم يفطن اليها وسط مشاريعه الكثيرة وانشغاله بالغزو وثقته الزائدة في نفسه وأصله وقدراته ، ولكن فطن اليها أعداؤه واستغلوها أحسن استغلال ، وأخذوا في تحريض الشعب الصقلي للتخلص من هذا الحكم الجائر ، وأمدوهم بالسلاح والاموال ، وكانت النتيجة الطبيعية لكل هذا هو الانفجار الثوري الهائل الذي أطاح بشارل دانجو وقضي علي حكمه في صقلية إلي الأبد . كما كان لهذه الثورة الصقلية تأثير علي البابوية ، فبالرغم من انحياز روما لصف شارل في حكمه لصقلية وتأييده وخاصة من قبل البابا مارتن الرابع تأييدا تاما وبمختلف الوسائل ، إلا ان الصقليين ضربوا بهذا التأييد عرض الحائط ، وسمت همتهم للخلاص من هذا الحكم ونصبوا ملكا اختاروه بانفسهم لا ملكا فرضته عليهم البابوية .

---

(١) عن صقلية ومكانتها أثناء حكم النورمان والهوهنستاوفن راجع :

Norwich J : The Normans in the South , 1967 .

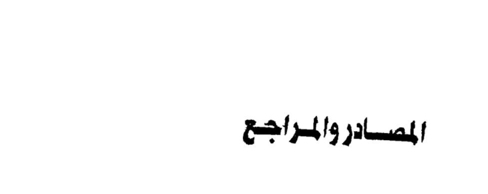
Runciman : The Sicilian Vespers , PP. 1 - 15 .

The Ilustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , U. S. A. , 1980 , PP. 646 - 647 .

وربما لم يكن فشل شارل في سياسته تجاه صقلية خطأه وحده ، لأنه لم يكن بمقدور حاكم باستثناء فردريك الثاني ، ان يوحد صقلية وايطاليا خاصة في القرن الثالث عشر ، لان الشعور القومي الوطني كان قد نمي وأخذ يسير في اتجاه آخر غير الذي اراده شارل دانجو ، ولم يكن الشعب الصقلي ليتقبل ان يكون تحت حكم رجل غريب . في الوقت الذي لم يدرك شارل ذلك ، بل لم يبذل أي جهد في سبيل محاولة فهم شعب صقلية لتحقيق مطالبه واحتياجاته .

لقد افتتح شارل دانجو عصر الغزوات الفرنسية في ايطاليا ، وبدلا من ان يوجه اهتمامه لجيران فرنسا القريبين منها ، ذهب ليغزو ايطاليا ويغرق في مشاكلها. وعندما توفي شارل في ١٢٨٥م. لم يترك وراءه في صقلية وايطاليا إلا الدمار ، وأسرة جديدة سيئة ، وحكومة أسوأ في نابولي ، وبابوية ضعيفة .

هذا ما خلفه نابليون القرن الثالث عشر شارل دانجو .



المصادر والمراجع

1 Austine Lane Poole The interrengnum in Germany , in c Med. H. vol VI . ed. Tanner , Cambridge , 1968

2 - Bartholomew of Neocastro · Historia Sicula , ed. Paladino , in Muratori , R I S S , vol XIII , Part 3 , 1921

3 - Barrachough G. The Origines of Modern Germany , 1951 .

The Medieval Papacy , London , 1975

4 - Berger E. Histoire de Blanche de Castile régne de France , Paris, 1895

5 - Böehmer J. · Regesta Imperii , ed. , Ficker and wink elmann , innsbiruck , 1881 - 1901 .

6 - Buchon (y.) : Recherches historiques sur la princiauté française de Morée , et ces hautes baronnies , I , Paris , 1845 .

7 - Carabellese · Carlo D'Angio nei rapporti Politici e commerciali Venezia e l'oriente , Bari , 1911

8 - Dante Alighieri Opera , III Purgatorio , ed. E. Moore and P. Toynbeé , fourth Edition , Oxford , 1924

9 - Del Guidice : La Famiglia del Re Manfredi , Naples , 1863 .

10 - Du Cange · Histoire de l'empire de Constantinople sous les empereurs français . ed. Buchon Paris , 1826 .

11 Fliche and Martin Histoire de l'eglise . vol X . Paris , 1950

12 Gibbon E The Decline and Fall of the Roman Empire . 6 vols,

New York , 1976 .

13 - Hampe K. : Geschichte Konradins Von Hohenstaufen , innsbruck , 1894 .

14 - Harvey J. : The Plantagenets , Six teenth impression , 1979 .

15 - Hefelé - Leclercq : Histoire des Conciles , Paris , 1914 .

16 - Hoyt and Chodorow : Europe in The Middele Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 .

17 - The illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , U. S. A. 1980 .

18 - Jordan E. : Les registres de Clement IV , Paris , 1893 .

19 - " : L'Allemagne et l'Italie aux XII e Siécles , dans Glotz : Histoire Générale , Histoire du Moyen Ages , vol IV , Paris , 1909 .

20 - " : Les Origines de la Domination Angevine en Italy , Paris , 1909 .

21 - Kern F. : Acta Imperii et Franciae 1267 - 1313 , Tubinger , 1911 .

22 - Labis : Histoire de France , Paris , 1976 .

23 - Leonard E. : Les Angevins de Naples , Paris , 1954 .

24 - Lexicon universal Encyclopedia , Lexicon Publication , New York , 1983

25 Longnon J Le rattachment de la principauté de Moreé au royaume de Sicile en 1267 , Paris , 1942 .

26 - Malaspina , Saba : Historia Sicula , in Muratori , RISS , vol VIII

27 - Martène and Durand : Thesaurus novus Anedotorum , vol II , Paris , 1717 .

28 - Miller (w.) : The Latins in The Levant , A History of Frankish Greece (1204 - 1566) , London , 1908

29 - Oliver - Martin : les registres de Martin IV , Paris , 1901

30 - Oman : A History of the Art of war in the Middle Ages , 2 vols, London , 1924 .

31 - Ostrogosky (G.) : A History of the Byzantine State , English trans. by Hussey , Oxford , 1969

32 - Painter (S.) : A History of the Middle Ages , New York , 1954

33 - Powicke (F.) King Henry III and Lord Edward , Oxford , 1957

34 Prawer (S.) Heine , The Tragic Stirist , A Study of later Poetry (1827 - 1856) , 1961

35 · Previté - Orton · Italy 1250 · 1290 in C. Med H. vol IV , ed Hssey , Cambridge , 1975

36 - Rose (w.) Heinrich Heine , two studies of thought and Feeling, 1956

Runciman (S.) : The Byzantine Civilization , Cambridge , 1975 .

" : the Sicilian Vespers , cambridge , 1988 .

38 - Sanudo (m.) Istoria del Regno di Romani , in Hapf . Chroniques Greco - Romanes , Berlin , 1873 .

39 - Setton K. : The Latins in Greece and The Aegean From The Fourth Crusade to the End of the Middle Ages , in C. Med. H. voi IV , ed Hussey , Cambridge , 1975 .

40 - Strenfeeld : Karl V on Anjou als craf der Provence . Berlin , 1888 .

41 - Tafel and Thomas : Vrk under Zuralteren Handels Und staats geschichte der Republik Venedig , Vienna , 1857 .

42 - Trifone (R.) La Legislazione Angioina , Naples , 1921 .

43 - Ullmann (W.) : A History of the papacy in the Middle Ages , 1972 .

44 - Vasiliev : The History of the Byzantine Empire (1324 - 1453) , 2 vols , U. S. A. , 1971 .

45 - Villani (G.) : Cronica , 8 vols , Florence , 1823 .

46 - Vntermeyer L · Heinrich Heine , Paradox and Poet the life , 1937

47 Zukythinos (P) Le Despotat Grec de Morée , Paris .